“ Silsilah Ushul & Qawa’id Tafsir “
Rumah Bahasa Arab

1. Ushul fii al-Tafsir
2. Al-Q awa’id al-Hisan li Tafsir Al-Qur’an
3. Muqaddimah fii Ushul al-Tafsir

أصول في التفسير

للشيخ محمد بن صالح العثيمين

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً، أما بعد:

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرءِ من أصوله ما يكون عونا له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخةً ، وقد قيل: "من حُرِمِ الأصول حرم الوصول".

ومن أجل فنون العلم، بل هو أجلها وأشرفها، علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل وقد وضع أهل العلم له أصولاً، كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً.

وقد كنت كتبت من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفردها

في رسالة، ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك, وأسأل الله تعالى أن ينفع بها.

ويتلخص ذلك فيما يأتي:

❖ القرآن الكريم:

١- متى نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن نزل به عليه من الملائكة؟

٢- أول ما نزل من القرآن

٣- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

٤- القرآن مكي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفرقاً. وترتيب القرآن.

٥- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

٦-جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

❖ التفسير:

١- معنى التفسير لغة واصطلاحاً، وبيان حكمه، والغرض منه.

٢- الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

٣- المرجع في التفسير إلى ما يأتي:

أ-كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن.

ب- سنة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه مبلّغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

ج. كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د. كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم.

هـ. ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي، أخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

٤- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفها - أنواعها - حكم كل نوع.

- خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير ثلاث للصحابة واثنتان للتابعين.

- أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه.
- موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.
- التشابه: حقيقي ونسبي.
- الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.
- موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.

❖ **الْقَسَم**: تعريفه – أداته– فائدته.

❖ **القصص**: تعريفها – الغرض منها – الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقصر والأسلوب.

- الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.

❖ **الضمير**: تعريفه – مرجعه – الإظهار في موضع الإضمار وفائدته – الالتفات وفائدته – ضمير الفصل وفائدته

القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مصدر قرأ بمعني تلا، أو بمعني جمع، تقول قرأ قرءاً وقرآناً، كما تقول: غفر غَفْراً وغُفراناً ، فعلى المعني الأول (تلا) يكون مصدراً بمعني اسم المفعول؛ أي بمعني متلوّ، وعلى المعني الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدراً بمعني اسم الفاعل؛ أي بمعني جامع لجمعه الأخبار والأحكام.

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس.

قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً) (الانسان: ٢٣) وقال: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف: ٢) .

وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفل عز وجل بحفظه فقال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩) ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر: ٨٧) . ... (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق: الآية ١) . وقال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩) (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام: ١٥٥) (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة: ٧٧) (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء: الآية ٩) .

وقال تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر: ٢١) (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُون (١٢٥) (التوبة: ١٢٤-١٢٥) (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (الأنعام: الآية ١٩) (فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) (الفرقان: ٥٢) . وقال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: الآية ٨٩) (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) (المائدة: الآية ٤٨) .

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس، قال الله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (الفرقان: ١) (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيد (٢) (ابراهيم: ١-٢) .

وسنة النبي صلى الله عليه وسلم مصدر تشريع أيضاً كما قرره القرآن، قال الله تعالى: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) (النساء: ٨٠) (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً) (الأحزاب: الآية ٣٦) (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: الآية ٧) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌرَحِيمٌ) (آل عمران: ٣١).

١. نزول القرآن

نزل القرآن أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر في رمضان، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر: ١) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) (الدخان:

٣-٤) . (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة: الآية ١٨٥) .

وكان عمر النبي صلى الله عليه وسلم أول ما نزل عليه أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيّب وغيرهم. وهذه السِّن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك.

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) (الشعراء: ١٩٢- ١٩٥) .

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة؛ ما جعله أهلاً لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله قال الله تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ " (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) (التكوير: ١٩- ٢١) . وقال: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) (لنجم: ٥-٧) . وقال: (قُلْ

نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ١٠٢).

وقد بين الله تعالى لنا أوصاف جبريل الذي نزل بالقرآن من عنده وتدل على عظم القرآن وعنايته تعالى فإنه لا يرسل من كان عظيما إلا بالأمور العظيمة.

٢. أول ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولي من سورة العلق، وهي قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) (العلق: ١- ٥) .

ثم فتر الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) (المدثر: ١-٥) .

ففي ((الصحيحين)) : صحيح البخاري ومسلم (١) . عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت: حتى جاءه الحقُّ ، وهو في غار حراء،

فجاءه الملك فقال اقرأ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئ (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث، وفيه ثم قال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق (١)) إلى قوله: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)) (العلق: ١- ٥) .

وفيهما (٢) عن جابر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحي: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء....) فذكر الحديث، وفيه، فأنزل الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) إلى (وَالرُّجْزَ فَاهْجُر (٥) (المدثر: ١-٥) .

وثمت آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أولية مقيدة مثل: حديث جابر رضي الله عنه في ((الصحيحين)) . أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر: ١) قال أبو سلمة: أنبئت أنه (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١) فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت ...) فذكر الحديث وفيه: (فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء بارداً، وأنزل علي: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر: ١) إلى قوله: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (المدثر: ١-٥)). فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي

الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله (قُمْ فَأَنْذِرْ) (المدثر: ٢), ولهذا قال أهل العلم: إن النبي صلى الله عليه وسلم نبئ ب (اقْرَأْ) (العلق: ١) وأرسل ب الْمُدَّثِّرُ) (المدثر: ١).

٣. نزول القرآن ابتدائي وسببي

ينقسم نزول القران إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القران، ومنه قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) (التوبة: ٧٥) الآيات, فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة ابن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له.

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه. والسبب:

أ – ... إما سؤال يجيب الله عنه مثل (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) (البقرة: الآية ١٨٩) .

ب – أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) (التوبة: الآية ٦٥) الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبه (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) (التوبة: الآية ٦٥).

ج– أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة: ١-٤).

فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

١– بيان أن القران نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينا له.

مثال الأول: قوله تعالى: (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً) (الإسراء: ٨٥) . ففي صحيح البخاري " عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلا من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (الإسراء: ٨٥) الآية.

ومثال الثاني قوله تعالى (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلّ) (المنافقون: الآية ٨) وفي صحيح البخاري أن زيد ابن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله ابن أبى رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم زيدا فأخبره بما سمع ثم أرسل إلى عبد الله ابن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم في الدفاع عنه.

مثال ذلك قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (الفرقان: ٣٢).

وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي صلى الله عليه وسلم وتطهير له عمّا دنسه به الأفاكون.

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم.

مثال ذلك آية التيمم، ففي " صحيح البخاري " أنه ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها، وهي مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فأقام النبي صلى الله عليه وسلم لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله أية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولاً.

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح.

مثال ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) (البقرة: الآية ١٥٨) أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: (فَلا جُنَاحَ عَلَيْه) (البقرة: الآية ١٥٨) أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري " عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا

والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ (البقرة: الآية ١٥٨) إلى قوله: (أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) (البقرة: الآية ١٥٨).

وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: (مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) (البقرة: الآية ١٥٨).

عموم اللفظ وخصوص السبب:

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها، لأن القران نزل تشريعا عاما لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) إلى قوله (إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (النور: ٦- الآية ٩) ففي صحيح البخاري " من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: البينة أو حد في ظهرك، فقال هلال:

والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرء ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) (النور: الآية٦) فقرأ حتى بلغ (إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (النور: الآية٩).

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك. فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنه بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث, فجعل البني صلى الله عليه وسلم حكم هذه الآيات شاملا لهلال بن أمية وغيره.

٤. المكي والمدني

نزل القران على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضي رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرها بمكة، قال الله تعالى (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) (الإسراء: ١٠٦) ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكي ومدني:

فالمكي: ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً) (المائدة: الآية ٣) من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعرفة، ففي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة".

ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ- أما من حيث الأسلوب فهو:

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب، لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، أقرأ سورتي المدثر، والقمر.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه البين، وسهولة الخطاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، أقرا سورة المائدة.

٢- الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة، لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم، أقرا سورة الطور.

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، مرسلة بدون محاجة، لأن حالهم تقتضي ذلك، أقرأ آية الدين في سورة البقرة.

ب- وأما من حيث الموضوع فهو:

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث، لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات، لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة، وذلك لأن فيها فوائد, منها:

١- ظهور بلاغة القران في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته حيث يتدرج شيئا فشيئا بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القران في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.

الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقا:

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا. ولنزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها:

١- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (يعني كذلك نزلناه مفرقاً) كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (ليصدوا الناس عن سبيل الله) إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) (الفرقان: ٣٢-٣٣).

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئا فشيئا، لقوله تعالى: (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) (الإسراء: ١٠٦).

٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القران وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

٤- التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يجابهوا بالمنع منه منعا باتا، فنزل في شأنه أولا قوله تعالى: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) (البقرة: الآية ٢١٩) فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئا إثمه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانيا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) (النساء: الآية ٤٣) فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات،

ثم نزل ثالثا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة: ٩٠) (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (المائدة: ٩١) (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (المائدة: ٩٢) فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منها باتا في جميع الأوقات، بعد أن هيئت النفوس، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات.

ترتيب القران:

ترتيب القرآن: تلاوته تاليا بعضه بعضا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين بدلا من (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة: ٢).

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلا من: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (الفاتحة: ٣) (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة: ٤) ففي صحيح البخاري أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهم في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) (البقرة: الآية ٢٤٠) قد نسخها الآية الأخرى يعني قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً) (البقرة: الآية ٢٣٤) وهذه قبلها في التلاوة قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه.

وروي الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث عثمان رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه السور ذوات

العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول، "ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا".

النوع الثالث: ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبا وفي " صحيح مسلم " عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه صلّى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري تعليقا عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أن صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: " تجور قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة. ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سنة الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب أتباعها " أهـ.

كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عسب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف وكان القراء عددا كبيرا.

ففي " صحيح البخاري " عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سبعين رجلا يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم.

وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة. وسببه أنه قتل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم، سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي صحيح البخاري" أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعا، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. رواه البخاري مطولا.

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوه من حسناته، حتى قال على رضي الله عنه: "أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله."

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف

الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي " صحيح البخاري " أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان من فتح أرمينية وأذربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وكان زيد بن ثابت أنصاريا والثلاثة قرشيين – وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روي أبن أبي داود عن على رضي الله عنه أنه قال: والله ما فعل

الذي فعل في المصاحف إلا عن ملاء منا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا، فنعم ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد.

وهو من حسنان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر الله عنه تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف، حتى لا يضيع منه شئ دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء، والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقا عليه بين المسلمين متواترا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين. فلله الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمينز (الجاثية: ٣٦).

التفسير

التفسير لغة: من الفسر، وهو: الكشف عن المغطى.

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم.

وتعلّم التفسير واجب لقوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩) ولقوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: ٢٤).

وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها. ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذي كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.

ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة لقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ) (آل عمران: الآية ١٨٧) وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليعبد الله بها على بصيره.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون معظما لهذه الشهادة خائفا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (الأعراف: ٣٣) وقال تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ) (الزمر: ٦٠)

المرجع في تفسير القرآن

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ- كلام الله تعالى: فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به. ولذلك أمثلة منها:

١-قوله تعالى: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس: ٦٢), فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس: ٦٣).

٢- قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) (الطارق: ٢) فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) (الطارق: ٣) .

٣- قوله تعالى: (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (النازعات: ٣٠) فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (النازعات: ٣١) (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) (النازعات: ٣٢) .

ب - كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه. ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (يونس: الآية ٢٦) ففسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه

ابن جرير وابن أبي حاتم صريحا من حديث أبي موسى وأبي بن كعب. ورواه جرير من حديث كعب بن عجرة.

في " صحيح مسلم " عن صهيب بن سنان عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قال فيه: " فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل "، ثم تلا هذه الآية (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (يونس: ٢٦)

٢- قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (لأنفال: الآية ٦٠) فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي. رواه مسلم، وغيره من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

ج- كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب. ولذلك أمثلة كثيرة جدا, منها:

١- قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ) (النساء: الآية ٤٣) فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسر الملامسة بالجماع.

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : إذا أجمعوا - يعني التابعين - على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو ألسنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضا: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئا في ذلك، بل مبتدعا، وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤة، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا.

هـ - ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق لقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (النساء: الآية ١٠٥) وقوله: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣) وقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (ابراهيم: الآية ٤) .

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً) (التوبة: الآية ٨٤) فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي، لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) (التوبة: الآية ١٠٣) فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم عن عبد الله بن أبي أوفي،

قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى بصدقة قوم، صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: " اللهم صل على آل أبي أوفى ".

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) (الإسراء: ٢٣) قال ابن عباس: قضي: أمر، وقال مجاهد: وصي، وقال الربيع بن انس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، او متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

القسم الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع.

مثاله قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) (الأعراف: ١٧٥) (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ (الأعراف: ١٧٦) قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر قوله تعالى (وَكَأْساً دِهَاقاً) (النبأ: ٣٤) قال ابن عباس: دهاقاً مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية. ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فتحمل عليها جميعاً ويكون كل قول لنوع من المعنى.

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلاله السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: ١٧٣) قال ابن عباس: غير باغ في الميتة ولا عاد من أكله، وقيل:

غير خارج على الإمام ولا عاص بسفره والأرجح الأول لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرم وغير ذلك.

ومثال آخر قوله تعالى: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) (البقرة: الآية ٢٣٧) قال على بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ترجمه القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح. وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى.

وترجمة القران: التعبير عن معناه بلغة أخرى والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بازائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣) فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمة فيترجم (إنا) ثم (جعلناه) ثم (قرآنا) ثم (عربيا) وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بازاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات.

وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك – محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالما بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالما بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن. ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلما مستقيما في دينه.

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا رضي الله عنهم، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضا: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة على بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم.

١- على بن أبي طالب:

هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وزوج فاطمة رضي الله عنه وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم. وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

ولد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وتربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلفه النبي صلى الله عليه وسلم في أهله، وقال له: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي ".

نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والزكاء حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن، ومن أمثلة النحويين: "قضية ولا أبا حسن لها".

وروى عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به"، وروي عنه أنه قال: "ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب".

كان أحد أهل الشورى الذي رشحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه.

٢- عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهزلي، وأمه أم عبد كان ينسب إليها أحيانا، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا، وما بعدها من المشاهد.

تلقى من النبي صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام: " إنك لغلام معلم "،

وقال: " من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد "، وفي " صحيح البخاري " أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا ،أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه".

وكان ممن خدم النبي صلى الله عليه وسلم فكان صاحب نعليه وطهوره ووساده حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا ما نرى عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أجل ملازمته النبي صلى الله عليه وسلم تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: "ما أعرف أحدا أقرب هديا وسمتا ودلا بالنبي صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد".

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم، وبعث عمارا أميراً وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فأقتدوا

بهما، ثم أمره عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأمره بالرجوع إلى المدينة، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

٣– عبد الله بن عباس:

هو ابن عم الرسول الله صلى الله عليه وسلم ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي صلى الله عليه وسلم، وضمّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة، وفي رواية: الكتاب، وقال له حين وضع له وضوءه: اللهم فقه في الدين ، فكان بهذا الدعاء المبارك حبر الأمة في نشر التفسير والفقه، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكانا عاليا حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مجالسه و يأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ ! فقال لهم: "ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول".

ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) (النصر: ١) حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟

قال: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك، واستغفره إنه كان توابا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لنعم ترجمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي ما كان نظيرا له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم.

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه اعلم من بقي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقها وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع.

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي وال على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه) فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، ولا سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت.

ولاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين وولاه علي على البصرة فلما قتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين سنة.

المشتهرون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ- أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح.

ب- أهل المدينة وهم اتباع أبي بن كعب، كزيد بن أسلم وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي.

ج- أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة، والشعبي. فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١- مجاهد:

هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله

عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها".

وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءت التفسير عن مجاهد فحسبك به، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيرا ما ينقل عنه في " صحيحه" وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

٢- قتادة:

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ولد أكمة أي أعمي سنة إحدى وستين، وجد في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال في نفسه: ما قلت لمحدث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئا قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من يتقدمه أما المثل فلعل، وقال: "هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئا إلا حفظه".

وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة، عن ستة وخمسين سنة.

القرآن محكم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود: الآية ١) وقوله (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (يونس: ١) وقوله (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزخرف: ٤) .

ومعنى هذا الإحكام الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) (الزمر: ٢٣).

ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة والغايات الحميدة (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء: الآية ٨٢).

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ٧).

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحا جليا، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات: ١٣) ، وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ٢١) وقوله: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ) (البقرة: الآية ٢٧٥) وقوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) (المائدة: الآية ٣) وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبها خفيا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) (المائدة: الآية ٦٤) أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضا حين يقول: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء: الآية ٧٩) ويقول في موضع آخر: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء: الآية ٧٨).

ومثاله فيما يتعلق برسول الله، أن يتوهم واهم من قوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (يونس: ٩٤) ظاهره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما أنزل إليه.

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) (آل عمران: الآية ٧) وقال في الراسخين في العلم: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (آل عمران: الآية ٧) فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلُون، ويُضِلُون.

وأما الراسخون في العلم يؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء: الآية٨٢) وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم ليكون الجميع محكماً.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذات لا تماثل ذوات المخلوقين، لأن الله تعالى يقول: (ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: الآية ١١).

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠) فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّرِهِ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لإنفكاك الجهة.

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقع منه شك فيما أنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقينا كما قال الله تعالى في نفس السورة: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (يونس: الآية ١٠٤) المعنى إن كنت في شك منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) (يونس: الآية ٩٤) أن يكون الشك جائزا على الرسول صلى الله عليه وسلم، أو واقعا منه. ألا ترى قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) (الزخرف:

٨١) هل يلزم منه أن يكون الولد جائزا على الله تعالى أو حاصلا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلا، ولا جائزا على الله تعالى، قال الله تعالى: (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً) (مريم: ٩٢) (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) (مريم: ٩٣).

ولا يلزم من قوله تعالى: (فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (البقرة: الآية ١٤٧) أن يكون الامتراء واقعا من الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله تعالى: (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (القصص: ٨٧) ومن المعلوم أنهم لم يصدون النبي صلى الله عليه وسلم عن آيات الله، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقع منه شرك.

والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه: التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظن ما لا يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم.

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) (طه: الآية ١١٠) وقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام: ١٠٣) ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥) كيف استوى قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبها على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوما للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شئ لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٣٨) وقال: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ) (النحل: الآية ٨٩) وقال: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) (القيامة: ١٨) وقال: (ثُمَّ

إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) (القيامة: ١٩) وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً) (النساء: ١٧٤).

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: الآية ١١) حيث اشتبه على أهل التعطيل، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وأدعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، واعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها قوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) (النساء: ٩٣) حيث اشتبه على الوعيدية، ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمدا مخلد في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر واعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى.

ومنها قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (الحج: ٧٠) حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري.

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكما لا اشتباه فيه.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه

لو كان القرآن كله محكما لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقا وعملا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابها لفات كونه بيانا، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وآخر متشابهات امتحانا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض لقوله تعالى: (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤٢), وقوله تعالى (لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء: الآية ٨٢) .

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد

كثيرا من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن: أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبته لشئ والأخرى نافية فيه.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذبا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) (النساء: الآية ٨٧) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) (النساء: الآية ١٢٢).

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حكمي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) (البقرة: الآية ١٠٦) وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وجب عليك التوقف، وتكل الأمر إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينوا الجمع في ذلك. ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب " دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب " للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة: الآية ٢) وقوله فيه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاس) (البقرة: الآية ١٨٥) فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيان والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين، قوله تعالى في الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: ٥٦) وقوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى: الآية ٥٢) فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ) (آل عمران: الآية ١٨) وقوله (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّه) (آل عمران: الآية ٦٢) وقوله: (فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) (الشعراء: ٢١٣) وقوله: (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) (هود: الآية ١٠١) ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الحج: ٦٢).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) (لأعراف: الآية ٢٨) وقوله (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (الإسراء: ١٦) ففي الآية الأولى نفي أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق.

والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعا بالفحشاء لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: ٩٠) والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته لقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يّس: ٨٢).

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفا

القسم

القسم: بفتح القاف والسين، اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو، أو إحدى أخواتها، وأدواته ثلاث:

الواو, مثل قوله تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقّ) (الذريات: الآية ٢٣) ويحذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

والباء, مثل قوله تعالى (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (القيامة: ١) ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (صٓ: ٨٢) ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين.

والتاء, مثل قوله تعالى: (تاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) (النحل: الآية ٥٦) ويحذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: ترب الكعبة لأحجن إن شاء الله.

والأصل ذكر المقسم به، وهو كثير كما في المثل السابقة. وقد يحذف وحده مثل قولك: "أحلف عليك لتجتهدن", وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر: ٨).

والأصل ذكر المقسم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: (قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُن) (التغابن: الآية ٧) وقد يحذف جوازا مثل قوله تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق: ١) وتقديره ليهلكنّ. وقد يحذف وجوبا إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني ومثل له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسم به.

والثانية: بيان أهمية المقسم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرا له.

القصص

القصص والقص لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضا.

وقصص القرآن:

- أصدق القصص؛ لقوله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) (النساء: الآية٨٧) وذلك لتمام مطابقتها على الواقع.
- وأحسن القصص لقوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآن) (يوسف: الآية ٣) وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.
- وأنفع القصص، لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَاب) (يوسف: الآية ١١١) . وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

- قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

- وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.
- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

1- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ) (القمر: ٤) (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (القمر: ٥).

2- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّك) (هود: الآية ١٠١).

3- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكرٍ) (القمر: ٣٤-٣٥).

4- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) (فاطر: ٢٥) (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (فاطر: ٢٦) .

5- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء: ٨٨) وقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم: ٤٧).

6- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) (محمد: ١٠).

7- إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود: ٤٩) وقوله: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) (إبراهيم: الآية ٩).

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررا حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحكمة في هذا التكرار:

١- بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقضيه الحال.

٥- ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدو تناقص.

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى.

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأولى: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر: ٦٧).

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل.

مثاله: ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) (البقرة: الآية ٢٢٣).

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: (آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ) (العنكبوت: الآية ٤٦).

ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده م النار " رواه البخاري.

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شئ من أمور الدين، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: " لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني".

وروى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شئ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله محضا، لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله، وغيروا، فكتبوا بأيدهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنا قليلا أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت موافق العلماء، ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبا، فكان حاطب ليل مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيميه عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

ج- ومنهم من ذكر كثيرا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئا يجعله تفسيرا للقرآن كمحمد رشيد رضا.

الضمير

الضمير لغة: من الضمور وهو الهزال لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصارا وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ) (غافر: الآية ٤٤).

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (الفاتحة: الآية ٧).

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع؛ اكتفاء بدلاله الحضور عنه.

والدال على الغائب، ما وضع للغائب. ولابد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقا على الضمير لفظا ورتبه مطابقا له لفظا ومعنى مثل: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) (هود: الآية ٤٥).

وقد يكون مفهوما من مادة الفعل السابق مثل: (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: الآية ٨).

وقد يسبق لفظا لا رتبة مثل: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربُه) (البقرة: الآية ١٢٤).

وقد يسبق رتبة لا لفظا مثل: "حمل كتابه الطالب".

وقد يكون مفهوما من السياق مثل: (وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَد) (النساء: الآية ١١) فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: (مما ترك).

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة) (المؤمنون ١٢، ١٣) فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ، لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول.

وإذا كان المرجع صالحا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما مثل: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً) (الطلاق: الآية ١١).

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وهو بالأفق الأعلي (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) (النجم: ٥-١٠) فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل.

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه.

مثال أول: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيل) (الإسراء: الآية ٢).

ومثال الثاني (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا) (إبراهيم: الآية ٣٤).

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

الإظهار في موقع الإضمار

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير بقوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) (الأحزاب ١٣٥) عن عشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار).

وله فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها:

1- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

2- بيان علة الحكم.

3- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: (من كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ) (البقرة: الآية ٩٨) ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

١- الحكم بالكفر على من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل.

٢- إن الله عدو لهم بكفرهم.

4-أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (الأعراف: ١٧٠) ولم يقل أنا لا نضيع أجرهم، فأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب. ويقيمون الصلاة.

٢- أن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مصلح وله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين.

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين.

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) (طه: الآية ١٤) وقوله (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) (الصافات: ١٦٥) وبضمير المخاطب كقوله تعالى: (كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم) (المائدة: الآية ١١٧) وبضمير الغائب كقوله تعالى: (وأولئك هم المفلحون).

وله ثلاثة فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك أوكد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

ثالثا: الفصل: أي التمييز بين كونه ما بعده خبرا، أو تابعا، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرا، وإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبرا، لوجود ضمير الفصل.

الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ*مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة) فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: إياك.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) (يونس: الآية ٢٢) فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله وجرينا بهم.

٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً) (المائدة: الآية ١٢) فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله وبعثنا.

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ) فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة بقوله: لربك.

وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى، لأن تغيير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الممل غالبا.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.

أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام.

والله أعلم. وصلي الله وسلم على بينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. تم لله الحمد رب العالمين.

فهرس

مقدمة 1

القرآن الكريم 5

١. نزول القرآن 7

٢. أول ما نزل من القرآن.. 9

٣. نزول القرآن ابتدائي وسبي 11

٤. المكي والمدني 16

كتابة القرآن وجمعه 24

التفسير.. 29

الواجب على المسلم في تفسير القرآن.. 31

المرجع في تفسير القرآن 31

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.. 36

ترجمه القرآن.. 38

المشتهرون بالتفسير من الصحابة.. 41

المشتهرون بالتفسير من التابعين 47

القرآن محكم ومتشابه.. 49

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه 52
أنواع التشابه في القرآن..54
الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه............................57
موهم التعارض في القرآن..58
القسم 62
القصص 64
تكرار القصص...67
الإسرائيليات 68
موقف العلماء من الإسرائيليات 70
الضمير 72
الإظهار في موقع الإضمار..74
ضمير الفصل...76
الالتفات 77

القواعد الحسان لتفسير القرآن

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

مقدمة

الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره, ونتوب إليه, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضل له, ومن يضلل فلا هادي له, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً. أما بعد:

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم, جليلة المقدار, عظيمة النفع, تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله, والاهتداء به, ومخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير, ومنهاج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إيراده, ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع, والهدى الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق, وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله, لأن الله أمر بتدبر كتابه, والتفكر في معانيه, والاهتداء بآياته, وأثنى على القائمين بذلك, وجعلهم في أعلى المراتب, ووعدهم أسنى المواهب, فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن, لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو

أفضل المطالب, وأعظم المقاصد, وأصل الأصول كلها, وقاعدة أساس السعادة في الدارين, وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة, وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة, ويهيء الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود, لأنه إذا انفتح للعبد الباب, وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب, وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها, لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل.

ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه, وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه.

القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقاً وعمل عملاً, وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه, فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته, كما قال تعالى: {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [البقرة: ١٨٩].

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر, وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه, ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها, بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم, وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]. فعلى الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات, أو أقل أو أكثر, لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل, فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار, وينقادون لأوامرها ونواهيها, ويطبقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم, ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة,

وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه, ويتخلقون بأخلاقه وآدابه, ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم, ومطالبون بمعرفة معانيه, والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه, وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله, انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير, وقويت معرفته واستنارت بصيرته, واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات, وعن البحوث الخارجية, وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً, وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحواله مع أوليائه وأعدائه, فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء, وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها, حاث عليها, زاجر عن المضار كلها, وجعل هذه القاعدة نصب عينيه, ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق, ظهر له عظم مواقعها وكثرة فوائدها وثمراتها.

ويلحق بهذه القاعدة:

القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جداً, بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير, وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير, ويقع الغلط والارتباك. وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم, فمتى راعيت القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هوعلى سبيل المثال لتوضيح الألفاظ, وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورةً عليها. فقولهم: نزلت في كذا وكذا, معناه: أن هذا مما يدخل فيها, ومن جملة ما يراد بها, فإن القرآن ـ كما تقدم ـ إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها, والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه, فإذا تدبرنا الألفاظ العامة, وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة, فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني, مع دخول ما هو مثلها ونظيرها؟

ولهذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه " إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك, فإنه إما خير تُؤمر به, وإما شر تُنهى عنه ".

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه, وعما يستحقه من الكمال, وما يتنزه عنه من النقص. فأثبت له جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه ونزّهه عن كل ما نزه نفسه عنه, وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه واليوم الآخر, وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة, فاجزم جزماً لا

شك فيه أنه حق على حقيقته, بل هو أعلى أنواع الحق والصدق, {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} {ومن أصدق من الله قيلا} و{ومن أصدق من الله حديثا }.

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه, وما يدخل فيه وما لا يدخل, وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة, وكذلك في النهي. ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصلَ كل الخير والفلاح, والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران. فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها كما قال تعالى: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} [الفرقان:٣٣] , يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقته:

القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه

وقد نص على ذلك أهل الأصول وأهل العربية, واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان.

فمثلُ قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ـ إلى قوله تعالى ـ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الأحزاب: ٣٥] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم, وبنقصانها ينقص, وبعدمها يفقد, وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب, وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نهى الله عنه ورتب عليه وعلى المتصف به عقوبة وشراً ونقصاً, يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور.

وكذلك مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً} [المعارج من ١٩: ٢١] , عام لجنس الإنسان, فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ } [المعارج:٢٢] إلى آخرها.

كما أن قوله: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر ١, ٢] دال على أن كل إنسان عاقبته ومآله إلى الخسار {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر:٣] وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى, فإن في القرآن منها شيئاً كثيراً, وهي أجلّ علوم القرآن, فمثلاً يخبر الله عن نفسه أنه الله, وأنه الملك, والعليم, والحكيم, والعزيز, والرحيم, والقدوس, السلام, والحميد, المجيد, فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها, وهي صفات الكمال كلها, والمحامد كلها له, والفضل كله, والإحسان كله, وأنه لا يُشارِكِ اللهَ أحد في معنى من معاني الألوهية, لا بشر, ولا مَلَك, بل هم جميعاً متألِّهون متعبِّدون لربهم خاضعون لجلاله وعظمته. وأنه **الملك** الذي له جميع معاني الملك, وهو الملك الكامل والتصرف النافذ, وأن الخلق كلهم مماليك لله, عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية والجزائية. وأنه **العليم** بكل شيء, الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء, الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات, والجائزات, والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي والسفلي والكليات والجزئيات. وما يعلم الخلق وما لا يعلمون. وأنه **الحكيم** الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه, وجميع ما شرعه لا يخرج عن حكمته,

لا مخلوق ولا مشروع. وأنه **العزيز** الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه, عزة القوة وعزة الامتناع, وعزة القهر والغلبة, وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر, ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم. وأنه **الرحيم** الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء, ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين. تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً} [غافر: ٧]. وأنه **القدوس السلام**, المعظم المنزه عن كل عيب وآفة ونقص, وعن مماثلة أحد, وعن أن يكون له ند من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى, اعتبرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله, بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى, وتقتضيه من المعاني العظيمة, بحسب ما يقدر عليه العبد, وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق بذلك, ولن يحصي أحد ثناء عليه, بل هو كما أثنى على نفسه, وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢] , يشمل جميع أنواع البر والخير, وتشمل التقوى جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المخُوفات والمعاصي والمحرمات.

والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم, ويوقع في المعصية. كما أن العدوان: اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي على الناس في الدماء والأموال والأعراض.

و" المعروف " في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً, وعكسه: المنكر.

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم ـ أمته إلى هذه القاعدة, وأرشدهم إلى اعتبارها إذ علمهم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فقال: (فإنكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد صالح من أهل السماء والأرض) [رواه البخاري], وأمثلتها في القرآن كثيرة جداً.

القاعدة الرابعة: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم

كقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} [النساء: ٣٦] فإنه نهى عن الشرك به في النيات, والأقوال والأفعال, وعن الشرك الأكبر, والأصغر والخفي, والجلي. فلا يجعل العبد لله نداً ومشاركاً في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} [البقرة: ٢٢] .

وقوله في وصف يوم القيامة: {يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً} [الانفطار: ١٩] , يعم كل نفس, وأنها لا تملك شيئاً من الأشياء, لأي نفس أخرى, مهما كانت الصلة, لا إيصال شيء من المنافع, ولا دفع شيء من المضار.

وكقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: ١٠٧] , فكل ضر قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائنا من كان كشفه بوجه من الوجوه. ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} [فاطر: ٢] وقوله {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد, وكل نعمة فيها حصول محبوب, أو دفع مكروه, فإن الله هو المنفرد بذلك.

وقوله {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر: ٣].

وإذا دخلت [من] صارت نصاً في العموم كهذه الآية: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٧] وقوله {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩] , ولها أمثلة كثيرة جداً.

القاعدة الخامسة: المفرد المضاف يفيد العموم, كما يفيد ذلك اسم الجمع

فكما أن قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [النساء: ٢٣] إلى آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها, وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت . إلى آخر المذكورات . فكذلك قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية.

وقوله: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢] فإنها تعم الصلوات كلها, والأنساك كلها, وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته, الجميع من الله فضلاً وإحساناً, وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده, لا شريك له.

وقوله: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥] على أحد القولين: إنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتخذوه معبداً.

وأصْرَح من هذا قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً} [النحل: ١٢٣] , وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تعالى, والقيام بحق العبودية.

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالى لما ذكر الأنبياء: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى, الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية, والأعمال الصالحة, والهدى المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: [أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه] وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه.

وكذلك قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣] , وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده, فعلاً وتركاً, اعتقاداً وانقياداً, وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده, كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] لكونهم هم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما اتصفوا به من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال.

وكذلك قوله {وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة, العبادات الاعتقادية والعملية.

كما أن وصف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم. بالعبودية المضافة إلى الله كقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الاسراء: ١] وكقوله {وَإِنْ كُنْتُمْ

فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [البقرة:٢٣] وقوله {تبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١] تدل على أنه وفَّي جميع مقامات العبودية, حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبوديات.

وقوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم, وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر:٥٠] وقوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل:٤٠] يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد ونفي ضده, وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الألوهية, وإخلاص العبادة لله وحده, لا شريك له, ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعوا قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا, وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه, وأن الكتب والرسل بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل, الذي هو أصل الأصول كلها, وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده فعمله باطل {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥] {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨] , ويدعوا العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المتفرد بالخلق والتدبير والمتفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو, وأن سائر الخلق ليس عندهم خلق, ولا نفع, ولا دفع, ولن يغنوا عن أحد من الله شيئا, ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به, ويُثني على نفسه الكريمة, من تفرده بصفات العظمة والمجد, والجلال والكمال, وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك أحق من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده, فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠] .

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد, وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً وعقلاً وفطرة, على جميع العبيد, ويذكر مساوئ الشرك وقبحه, واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم, وتقليب أفئدتهم, وكونهم في شك وأمر مريج.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة, والحياة الطيبة في الدور الثلاث, وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة, وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل, فإنه من ثمرات التوحيد, وكل شر عاجل وآجل, فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم.

القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبر أنه صدق المرسلين, ودعا إلى ما دعوا إليه, وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب, فرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه, وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع, وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين, وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره, وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ, ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة, بل لم يَفْجَأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِروا, ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا, وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه, أو أن يكون قد تقوَّله على ربه, أو أن يكون على الغيب ظنيناً.

وأعاد القرآن وأبدى في هذا النوع, وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على جميع الواقع, الذي لا يستريب فيه أحد, ثم يخبر تعالى:

أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي, كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} [القصص: ٤٤] ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف:١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها تفصيلاً لم يتمكن أهل الكتاب الذين في وقته ولا من بعدهم على تكذيبه فيها ولا معارضته من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله, وتمام قدرته, وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه, وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمةِ ورحمةِ العزيز الحكيم, وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي صلى الله عليه وسلم على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته, وأدلة توحيده, كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال, وما هو عليه من الأخلاق الجميلة, وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته, وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها: الصدق والأمانة, أليس هذا أكبرَ الأدلة على أنه رسول رب العالمين, والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين, وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين, إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة, وأوصاف أمته وأوصاف دينه.

وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة التي وقعت في زمان مضى على زمانه, أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت, فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا, ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه, وعصمته له من الخلق, مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه, وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم, والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم, وما ذاك إلا لأنه رسوله حقا, وأمينه على وحيه.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القرآن الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤٢] ويتحدى أعداءه, ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة

واحدة, فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل, وأن هذا القرآن لأكبرُ أدلة رسالته وأجلُّها وأعمُّها.

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات, وما أجرى له من الخوارق والكرامات, الدالِّ كل واحد منها بمفرده ـ فكيف إذا اجتمعت ـ على أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصادق المصدوق, الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق, وحُنوِّه الكامل على أمته, وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم, وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا براً وإحساناً إلى الخلق منه, وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة, ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة, وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد, والرسالة, وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم, وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى, مع إكثار الله من ذكره, فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه.

ومنها الإخبار بكمال قدرة الله تعالى, ونفوذ مشيئته, وأنه لا يعجزه شيء, فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها تذكيره العباد بالنشأة الأولى, وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً, لابد أن يعيدهم كما بدأهم, وأن الإعادة أهون عليه, وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها, وأن الذي أحياها سيحي الموتى, وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك, وهو خلق السماوات والأرض, والمخلوقات العظيمة, فمتى أثبت المنكرون ذلك, ولن يقدروا على إنكاره, فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟

وقرر ذلك بسعة علمه, وكمال حكمته, وأنه لا يليق به, ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين, لا يُؤمرون ولا ينهون, ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم, والمسيئين بإسائتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم, وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث, ونوَّعَ عليهم العقوبات, وأحل بهم المثُلات, فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده, ليهلك من هلك عن بينة, ويحي من حي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل, والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها, وقصة إبراهيم الخليل والطيور, وإحياء عيسى بن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار, ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار, وأن العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار, إما الجنة أو النار. وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن, أي بأقرب طريق موصل للمقصود, محصل للمطلوب, ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها, فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان, فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان, وشروطه ومكملاته, فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر, واجتناب النواهي, والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل. فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي, ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص, وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه, كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة, من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها ـ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني أن يدعوهم بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} افعلوا كذا, أو اتركوا كذا, أو يعلق ذلك بالإيمان, يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة, التي هي أجل المنن, أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذاز

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم, ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان, ببيان تفصيل هذا الشكر, وهو الانقياد التام لأمره ونهيه.

وتارة يدعوا المؤمنين إلى الخير, وينهاهم عن الشر, بذكر آثار الخير, وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة, وبذكر آثار الشر, وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة, وآلائه الجزيلة, وإن النعم تقتضي فهم القيام بشكرها, وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب, ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى, وما له من الحق العظيم على عباده, وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً, ويتعبدوا له وحده, ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة. فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير, وإجلال وإكرام, وتودد إليه, وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك, لأجل أن يتخذوه وحده ولياً وملجأ, وملاذا ومَعاذا, ومفزعا إليه في الأمور كلها, وينيبوا إليه في كل حال, ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه, وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء, ويمنيه ويغره, حتى يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك, وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض, والأديان المبَدَّلة, لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله {وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥] {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين} [البقرة: ة٣٥] {وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [لأعراف: ٢٠٥] {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦], إلى غير ذلك من الآيات.

يدعوهم إلى الإسلام, والإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يصفه من محاسن شرعه ودينه, وما يذكره من براهين رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهتدي منْ قصد الحق والإنصاف, وتقوم الحجة على المعاند. وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام. فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي صلى الله عليه وسلم ـ وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة, بقطع النظر عن إبطال شبههم, وما يحتجون به, فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة, وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور, والعواقب الخبيثة, وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة, ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء, فإنهم رؤساء الشر, ودعاة النار, وأنهم لابد أن تتقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات, وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ولم يطيعوا السادة والرؤساء, وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضا وعداوة.

ويدعوهم أيضاً بنحو ما يدعوا المؤمنين بذكر آلائه ونعمه, وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته, وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً بشرح ما في أديانهم الباطلة, وما احتوت عليه من القبح, ويقارن بينها وبين دين الإسلام, ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره, وما يتعين اختياره.

ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم, وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها, وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف, وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد. ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى, وأنها رياسات وأغراض نفسية, وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم وختم عليها, وسد عليهم طريق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان, وإعراضهم عن الرحمن, وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم. وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة, فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية, والله أعلم.

القاعدة الحادية عشر: كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة, وما دخل في ضمنها, فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني, وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرح اللفظ بذكرها

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها, وتستدعي قوة فكر, وحسن تدبر, وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء, الذي أحاط علمه بما تكن الصدور, وبما تضمنه القرآن من المعاني, وما يتبعها وما يتقدمها, وتتوقف هي عليه. ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهماً جيداً, ففكر في الأمور التي تتوقف عليها, ولا تحصل بدونها, وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها, وما يتفرع عنها, وينبني عليها, وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه, حتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق, ولازم الحق حق, وما يتوقف على الحق حق, وما يتفرع عن الحق حق. فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً, انفتحت له في العلوم النافعة, والمعارف الجليلة, ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسماء الله الحسنى [الرحمن الرحيم] فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمة, وسعة رحمته, فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفه الثابت, وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق, ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته, وكمال قدرته, وإحاطة علمه, ونفوذ مشيئته, وكمال حكمته, لتوقف الرحمة على ذلك كله, ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨] فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات, وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها, وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك. وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل, استدللت بذلك على أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار, لابد أن يكون عالماً بما يحكم به: فإن كان حاكماً عاماً, فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلى ذلك, وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين, حيث أمر الله أن نبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها, فلا بد أن يكون عارفاً بهذا الأمور التي يريد أن يحكم بها, ويعرف الطريق التي توصله إليها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم, وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد, فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة. ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه, فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه, أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر, يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر, ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا, فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب, وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به, والعلم بضد ذلك متقدمعلى تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبداً.

ومن ذلك الأمر بالجهاد, والحث عليه, من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به, من تعلم الرمي بكل ما يرمى به, والركوب لكل ما يُركب, وعمل آلاته وصناعاته, مع أن ذلك كله داخل دخولَ مطابقة في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية, وسياسية وصناعية ومالية ونحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده, وقرن شهادتهم بشهادته, وشهادة ملائكته. وهذا يدل على عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماما, يقتضي سؤالهم اللهَ جميع ما تتم به الإمامة في الدين, من علوم ومعارف جليلة وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربه شيئا سؤال له ولما لا يتم إلا به, كما إذا سأل العبد اللهَ الجنة, واستعاذ به من النار, فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلى هذه ويبعِّد من هذه.

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح, وأثنى على المصلحين, وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين, فيُسْتدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم, وكل أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه, وأن كل فساد وضرر وشر, فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه, وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح, بحسب استطاعة العبد, كما قال شعيب ـ عليه السلام ـ {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: ٨٨] .

ومن ذلك قوله تعالى {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: ٤٧] {حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [لأنفال:٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به, والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال وما يتوقف على ذلك, ويتبعه من الاستعداد والتمرن على أسباب الشجاعة والسعي والقوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة ونحو ذلك.

ومن ذلك الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية, والتذكير بها, وتعليمها, فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلفين يدخل في ذلك, حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية, وَوُجدت أسبابها, وكانت تخفى عادة على أكثر الناس, كثبوت الصيام والفطر والحج وغيره بالأهلة إبلاغها بالأصوات والرمي, وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك, كالبرقيات ونحوها.

وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على إيصال الصوت إلى السامعين, من الآلات الحادثة, فحدوثها لا يقتضي منعها, فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه, بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به.

وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه, أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئاً منه, فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلاً, أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه فهذا محال, والحس والتجربة شاهدان بذلك, فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات, وتبحرت المعارف الطبيعية, وظهر للناس فى هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك, فإن القرآن ـ ولله الحمد ـ لا يخبر بإحالته, بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إرشادات تدل عليه. وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في غير هذا الموضع. والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق.

القاعدة الثانية عشر: الآيات القرآنية التي ظاهرها التضاد يجب حمل كل نوع منها على حال بحسب ما يليق ويناسب المقام.:

وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون, ولا يتكلمون يوم القيامة, وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجُّون ويعتذرون ويعترفون: فمحمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون, وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر, ويقسمون على ذلك, ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم, وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون, ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أُخْرِسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم, ولا ينظر إليهم يوم القيامة, مع أنه أثبت الكلام لهم معه, فالنفي واقع على الكلام الذي يسرهم, ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع, فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم, غير راض عنهم, والإثبات يوضح أحوالهم, ويبين للعباد كمال عدل الله فيهم, إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك أن في بعض الآيات أخبر أنه {لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩] , وفي بعضها: أنه يسألهم {مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ} [الشعراء: ٩٢] و {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٦٥] , ويسألهم عن أعمالهم كلها. فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة, فإنه لا حاجة إلى سؤالهم, مع كمال علم الله, واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها. والسؤال المُثْبَت: واقع على تقريرهم بأعمالهم وتوبيخهم وإظهارِ أن الله حكم فيها بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة, وفي بعضها: أثبت لهم ذلك, فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس؛ كقوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ} [عبس:٣٤, ٣٥] إلى آخرها, والمنفي: هو الانتفاع بها, فإن الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة فأخبر تعالى أنه {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨-٨٩] . ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة, كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات, وإن لم يبلغوا منزلتهم, وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم, فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه, من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئاً.

ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها فى عدة مواضع, ونفاها في مواضع من القرآن, وقيدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضى من خلقه, فتعين حمل المطلق على المقيد, وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة بغير إذنه, ولغير من رضي الله قوله وعمله, وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر فى آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين والفاسقين والظالمين ونحوها, وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم, فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله, لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس: ٩٦, ٩٧] , وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة, وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلى, وأنه فوق عباده وعلى عرشه, وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا, وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين ونحوهم, فعُلوُّه تعالى أمر ثابت له, وهو من لوازم ذاته.

ودنوه ومعيته لعباده لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد, فهو على عرشه عَليٌّ على خلقه, ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم, ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء فى جميع نعوته, وما يتوهم بخلاف ذلك فإنه

في حق المخلوقين. وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوها, فهي معية أخص من المعية العامة, تتضمن محبتهم وتوفيقهم, وكلاءتهم, وإعانتهم في كل أحوالهم, فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع, وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن مُوادَّتهم والاتصال بهم, وفي بعضها الأمر بالإحسان إلى من له حق على الإنسان منهم, ومصاحبته بالمعروف, كالوالدين والجار ونحوهم. فهذه الآيات العامات من الطرفين, قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٨, ٩], فالنهي واقع على التولي والمحبة لأجل الدين, والأمر بالإحسان والبر واقع على الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الإنسانية على وجه لا يُخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات, وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها. فهذه الآية تفسر المراد, وأن خلق الأرض

متقدم على خلق السماوات, ثم لما خلق الله السماوات بعد ذلك دحا الأرض, فأودع فيها مصالحها المحتاج إليها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم, وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد وببعض أحوالهم, وهذا الأخير فيه زيادة معنى, وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل, سواء كان خيراً أو شراً, فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة, وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي, والإخلاد إلى السكون, فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة, ولا قدرة على الجهاد باليد, والآيات الأخرى حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها, وتارة يضيفها إلى عموم قدره, وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته, فيفيد مجموع الأمرين إثبات التو حيد, وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته, وإثبات الأسباب والمسبَّبات, والأمرَ بالمحبوب منها, والنهي عن المكروه, وإباحةَ مستوى الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب

النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله, وأن لا يتكل على نفسه في أمر من الأمور بل يتكل على الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله, وما أصاب من سيئة فمن نفسه, ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله وجوده, وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد, فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسرها, وأن السيئات وهي المصائب التي تصيب العبد فإنما أسبابها من نفس العبد, وبتقصيره في حقوق ربه, وتعديه لحدوده, فالله وإن كان هو المقدر لها. فإنه قد أجراها على العبد بما كسبت يداه, ولهذا أمثلة يطول عدّها.

القاعدة الثالثة عشرة: طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن, ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها, وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل, على وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج. فتأمل محاجة الرسل مع أممهم, وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له, من جهة أنه المتفرد بالربوبية, والمتوحد بالنعم, وهو الذي أعطاهم العافية, والأسماع والأبصار, والعقول والأرزاق, وسائر أصناف النعم, كما أنه المنفرد بدفع النقم, وأن أحداً من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع, ولا ضر ولا نفع, فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لابد أن ينقاد للدين الحق, الذي به تتم النعمة, وهو الطريق الوحيد لشكرها. وكثيراً ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته, وأنه الخالق لكل شيء, والرازق لكل شيء, فيتعين أن يكون هو المعبود وحده. فانظر إلى هذا البرهان, وكيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة من هذا شأنه, ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له. ويجادل المبطلين أيضاً بذكر عيب آلهتهم, وأنها ناقصة من كل وجه, لا تغنى عن نفسها فضلاً عن عابديها شيئاً. ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق

المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم, وينقض عليهم دعاويهم الباطلة, وتزكيتهم لأنفسهم, ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم, ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه, وأن صدقه وحقيقتَه تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاّ الضَّلاَلُ} [يونس: ٣٢].

وهذا الأصل في القرآن كثير, فإنه يفيد فى الدعوة للحق, ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها, وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئاً من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه. ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة, وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين. ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها, لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقاً نافعاً فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه.

القاعدة الرابعة عشرة: حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جداً, متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة. وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قيد بشيء تقيد به, فإذا أطلقه الله تعالى, وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم, ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات, وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جداً:

منها: أنه قال في عدة آيات {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} , {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} , {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١, ١٥٢, ١٥٣] فيدل ذلك على أن المراد: **لعلكم تعقلون** عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه, وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة, **لعلكم تذكرون** جميع مصالحكم الدينية والدنيوية, **لعلكم تتقون** جميع ما يجب اتقاؤه من جميع الذنوب والمعاصي,

ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام. ولهذا كان قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣] : يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام, أي لعلكم تتقون المحارم عموماً, ولعلكم تتقون ما

حرم الله على الصائمين من المفطرات والممنوعات, ومن كل الأحوال والصفات السيئة والخبيثة, ولعلكم تتصفون بصفة التقوى, وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون, وتتخلقون بأخلاقها, وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢] أي المتقين لكل ما يُتقى من الكفر والفسوق والعصيان, المؤدين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى.

وكذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف:٢٠١] أي إن الذين كانت التقوى وصفهم, واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم, وترك المحارم شعارهم متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبس عليهم الطريق, وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات, تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب إجلالاً لعظمة الله, وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوى, وتذكروا عقابه ونكاله, وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات, فإذا هم مبصرون من أين أُتوا, ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه, فبادروا بالتوبة النصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم, فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ " المؤمنين " وبلفظ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٦٢] ونحوها, فإنه يدخل فيه جميع ما يجب

الإيمان به من الأصول والعقائد والأعمال والأحكام, مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات مثل قوله: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ} الآية [البقرة١٣٦].

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح, وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقاً, يدخل فيه كل صلاح كما يدخل في النهي كل فساد.

وكذلك قوله {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥] {وَأَحْسِنُوا} [البقرة: ١٩٥] , {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى} [يونس: ٢٦] {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠] يدخل في ذلك كله الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك, والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه, وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر:١] فحذف المتكاثَر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد, وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تعالى {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:١, ٢] أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح, والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقوله {فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣] فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه, ليعم كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.

وكذلك أمره تعالى بالصبر, ومحبته للصابرين, وثناؤه عليهم, وبيان كثرة أجورهم, من غير أن يقيد ذلك بنوع, ليشمل أنواع الصبر الثلاثة, وهي الصبر على طاعة الله, وعن معصية الله, وعلى أقدار الله المؤلمة. ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين والمنافقين والمعتدين ونحوهم, من غير أن يقيده بشئ ليشمل جميع ذلك المعنى.

ومن هذا قوله {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} [البقرة: ١٩٦] ليشمل كل حصر, ومنه قوله {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً} [البقرة: ٢٣٩] ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله. وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر أمثلة عليه لطالت, ولكن قد فتح لك الباب, فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

القاعدة الخامسة عشرة: جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان

وهذا في عدة مواضع من كتابه, فمن ذلك:

النصر, قال في إنزال الملائكة به: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال: ١٠] وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} [الروم: ٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس من ٦٢: ٦٤] وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد بهم الخير, وأنهم من أوليائه وصفوته, فيدخل فيه الثناء الحسن والرؤيا الصالحة, ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق, والتيسير لليسرى, وتجنيبهم العسرى.

ومن ذلك: بل من ألطف من ذلك أنه يجعل الشدائد مبشرة بالفرج, والعسر مؤذناً باليسر, وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه, وكيف لما اشتدت بهم الحال, وضاقت عليهم الأرض بما رحبت, {وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ} . [البقرة: ٢١٤] {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ

قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤] رأيت من ذلك العجب العجاب. وقال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} . [الشرح:٥, ٦] وقال صلى الله عليه وسلم . (واعلم أن النصر مع الصبر, وأن الفرج مع الكرب, وأن مع العسر يسراً) وأمثلة ذلك كثيرة, والله أعلم.

القاعدة السادسة عشرة: حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد

وذلك كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [السجدة: ١٢] {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} [سبأ: ٥١] {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً} [البقرة: ١٦٥] {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٣٠] {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام: ٢٧] . فحذْف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذِكْره, ليدل على عظمة ذلك المقام, وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يعبَّر عنه بلفظ ولا يُدرك بالوصف, مثله قوله تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر:٥] أي لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو.

القاعدة السابعة عشرة: بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له, وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى, ودل ما قرن معه على باقيه

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: الإيمان, أُفرد وحده في آيات كثيرة, وقُرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة. فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة, ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب, والنجاة من العقاب, ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره. وهو عند السلف: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح. والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح: كقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: ٢٧٧] يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق, والاعتقاد والإنابة. والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ " البر والتقوى " فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي, وكذلك إذا أفردت التقوى. ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق والنجاة المطلقة كما يرتبه على الإيمان. وتارة يُفسِّر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي, وكذلك في بعض

الآيات تفسير خصال التقوى, كما في قوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ} [آل عمران: ١٣٣, ١٣٤] إلى آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتم بها التقوى. وإذا جمع بين البر والتقوى مثل قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢] كان "البر" اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. وكانت "التقوى" اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ "الإثم" و "العدوان" إذا قرنا, فسر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه, والعدوان بالتجرىء على الناس في دمائهم وأعراضهم. وإذا أفرد "الإثم" دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها, سواء كانت بينه وبين ربه أو بينه وبين الخلق, وكذلك إذا أفرد "العدوان" .

وكذلك لفظ "العبادة والتوكل" ولفظ "العبادة والاستعانة" إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً, ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣] فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة, وفسر التوكل باعتماد

القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار . مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك "الفقير والمسكين" إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر كما في أكثر الآيات, وإذا جمع بينهما كما في آية الصدقات وهي قوله: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة: ٦٠] فسِّر الفقير بمن اشتدت حاجته وكان لا يجد شيئاً, أو من يجد شيئاً لا يقع منه موقعاً, وفسر "المسكين" بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه, ويشمل ذلك: القيامَ بالدين كله, فإذا قُرِنت معه الصلاة كما في قوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ} [العنكبوت: ٤٥] وقوله {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} [الأعراف: ١٧٠] كان ذكر الصلاة تعظيماً لها وتأكيداً لشأنها, وحثاً عليها, وإلا فهي داخلة في الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة: في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء, ويضل من يشاء, وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد, الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال, وكذلك حصول المغفرة وضدها, وبسط الرزق وتقديره

وذلك في آيات كثيرة, فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء, ويغفر لمن يشاء, ويعذب من يشاء, ويرحم من يشاء, ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء. يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء, وتدبير جميع الأمور, وأن خزائن الأشياء كلها بيده, يعطي ويمنع ويخفض ويرفع, فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك, وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبون منها, ودفع كل ما يكرهون, وأن لا يسألوا أحداً غيره, كما في الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته, فاستهدوني أهدكم) إلى آخره.

وفي بعض الآيات: يذكر فيها أسباب ذلك, ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها, فيسلكوا النافع ويدعوا الضار, كقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: الآيات من ٥: ١٠] فبيَّن

أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي, وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك. وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ} [المائدة: ١٦] {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦] وقوله: {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأعراف: ٣٠] فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسناً, ومن رغب في الخير, واتبع رضوان الله, وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة, وتمرد على الله, وتولى أعداءه من شياطين الإنس والجن, ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين. وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الصف: ٥] وقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠] .

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة, والتي تحق بها كلمة العذاب, كقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} [طه:٨٢] {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف: من الآيات ١٥٦, ١٥٧] وقوله: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦] وقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣] ثم ذكر الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة, وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ} [البقرة: ٢١٨] {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٢٠٤] وأعم من ذلك كله قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران:١٣٢] فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً, وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة, وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله, والتولي عن طاعة الله ورسوله, كقوله تعالى: {لا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الشمس من ١٥:١٨] وقوله: {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه:٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق, وأنها لزوم طاعة الله ورسوله, والسعي الجميل في مناكب الأرض مع لزوم التقوى كقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: من الآيات ٢, ٣] وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالى: {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} [الطلاق: ٧] وكثرة الذكر والاستغفار: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً

حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣] {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً} [نوح: ١٠, ١١] فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره, وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة وقد عرفت طريقها فالزمه.

القاعدة التاسعة عشرة: يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه القاعدة لطيفة نافعة, عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها, تجدها في غاية المناسبة, وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه, وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم. فتجد آية الرحمة مختومةً بصفات الرحمة, وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر. ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا, ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر وعبارتنا الضعيفة, ولو طالت الأمثلة هنا لأنها من أهم المهمات, ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها. قال تعالى: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٩] فذكرُ إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة, وأنه حكيم حيث وضعها لعباده, وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام, وأن خلقه لها من أدلة علمه, كما قال في الآية الأخرى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤] فخلقه للمخلوقات وتسويتها على

ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية على علمه, فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلامَ الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة ومراجعتهم لربهم في ذلك, فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه, وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:٣٢] فاعترفوا لله بسعة العلم, وكمال الحكمة, وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله. وفي هذا: أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم, وأنه لا علم لهم إلا منه, فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين, الدالين على علم الله بآدم وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته في خلقه, وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٣٧] وختمه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين [التواب الرحيم] بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته, وتوفيقه وحلمه, فمناسبته جليلة لكل أحد, وأنه لما كان هو التواب الرحيم, أقبل بقلوب التائبين إليه, ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة

التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه, فيرجعون في كل شئونهم وأمورهم إلى ربهم, فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم ثم يغفر لهم ويرحمهم, فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها, وتاب عليهم ثانياً حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم, ولهذا قال في الآية الأخرى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} [التوبة: ١١٨] أي أقبل بقلوبهم عليه, فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة, فإنها لا تأمر إلا بالسوء, إلا من رحم الله فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك. فقال {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: من الآيتين ١٠٦, ١٠٧] وفي هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود, وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه, فإنه تعالى يتصرف في عباده, ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية, فلا حجر عليه في شيء من ذلك.

ولما قال: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: ١١٥] قال: {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥] أي: واسع الفضل, واسع الملك, جميع العالم العلوي والسفلي بعض ملكه, ومع سعته في ملكه وفضله

فهو محيط علمه بذلك كله, ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبَلَة, ومحيط علمه بما في التوجه إلى القِبَل المتنوعة من الحكمة, ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطئوا القبلة المعينة, فحيث ولى المصلى منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهما يرفعان القواعد من البيت {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧] فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل, حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما, ويسمع كلامهما, ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة ـ معنى المستجيب. كما قال الخليل في الآية الأخرى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [ابراهيم: ٣٩].

وأما ختم قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ} [البقرة: ١٢٩] بقوله {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩] فمعناه: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة, ففيه تمام عزة الله وكمال حكمته, فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى عبثا, لا يرسل إليهم رسولا, فحقق الله حكمته ببعثه, كما حقق حكمته لئلا يكون للناس على الله حجة, والأمور كلها: قدريها وشرعيها, لا تقوم إلا بعزة الله, ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها, لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذكر الاسم العظيم, عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام, مثل قوله تعالى: {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} [البقرة: ٢٠٩] لم يقل: فلكم من العقوبة كذا, بل قال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٠٩] أي: فإذا عرفتم عزته وهي قهره وغلبته وقوته وامتناعه, وعرفتم حكمته - وهي وضعه الأشياء موضعها, وتنزيلها محالها - أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم, لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصر على الذنب مع علمه, وأنه ليس لكم امتناع عليه, ولا خروج عن حكمه وجزائه, لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٣٤] لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم ونحوها, بل قال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٤] يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه, عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه, فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: {نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨] أي: عز وحكم فقطع يد السارق, وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعاً وقدراً وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها قال: {فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} [النساء: ١١] فكونه عليماً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد, ويضع الأشياء مواضعها, فاخضعوا لما قاله وفِعْله, وفصَّله في توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته, فلو وَكَلَ العبادَ إلى أنفسهم, وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوى وعدم الحكمة, وصارت المواريث فوضى, وحصل بذلك من الضرر ما الله به عليم, ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال وأقواها للنفع. ولهذا من قدح في شيء من أحكامه, أو قال: لو كان كذا وكذا فهو قادح في علم الله وفي حكمته. ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام, كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته, غير خارج عن علمه. ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب. وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠] أي: تعبَّدوا لله بدعائه بها, واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج: {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [الحج:٥٩] والآيات المتتابعة التي بعدها, كل واحدة ختمت باسمين كريمين. فالأول منها: ختمها بالعلم والحلم: يقتضي علمه بنياتهم الجميلة,

وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة, فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم, ويعفو ويحلم عن سيئاتهم فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية بالعفو الغفور, فإنه أباح المعاقبة بالمثل, وندب إلى مقام الفضل, وهو العفو وعدم معاقبة المسيء, وأنه ينبغي لكم أن تتعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختم الآية الثالثة بالسميع البصير يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار, وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير, لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معه جميع المخلوقات, ويبطل معها كل ما عبد من دونه, وبإثبات كمال علوه وكبريائه, يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير, الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن. كالظواهر, وبما تحتوى عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات, وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق, بما أنزله من الماء النَّمير, والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد, بعد ما ذكر ملكه للسماوات والأرض, وما فيهما من المخلوقات, وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها, فإنه غني مطلق, ولا ليتكمَّل بها. فإنه الحميد الكامل, وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه, وأنه حميد في أقداره, حميد في شرعه, حميد في جزائه, فله الحمد المطلق ذاتا وصفات وأفعالاً.

وختم الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم, أي: من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤها لئلا تزول, فتختل مصالحهم. ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم, فرحمهم حيث خلق لهم المسكن, وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه, وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم, ختم كل قصة بقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الشعراء: ٩, ٦٨, ١٠٤, ١٢٢, ١٤٠, ١٥٩, ١٧٥, ١٩١] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه, وذلك برحمة الله ولطفه, وتضمنت إهلاك المكذبين له, وذلك من آثار عزته. وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين, فإنه نجى الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته, وأهلك المكذبين بعزته وحكمته. ويكون ذكر الرحمة دالاً على عِظم جرمهم, وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها

دونهم بتمردهم على الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها, ولولا ذلك لما أحل بهم العقاب.

وأما قول عيسى ـ عليه السلام ـ {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنهم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة:١١٨] ولم يقل: أنت الغفور الرحيم, لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام, إنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلهين من دون الله, فناسب ذكر العزة والحكمة, وصار أولى من ذكر الرحمة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة, ثم يختمها بما يدل على الرحمة؛ مثل قوله: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ١٢٩] وقوله: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} [الأحزاب:٧٣] فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور, وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة, ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.

القاعدة العشرون: القرآن كله محكم باعتبار, وكله متشابه باعتبار, وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث. فوصفه بأنه محكم في عدة آيات, وأنه: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١] ومعنى ذلك أنه في غاية الإحكام ونهاية الانتظام, فأخباره كلها حق وصدق, لا تناقض فيها ولااختلاف, وأوامره كلها خير وبركة وصلاح, ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً} [الزمر: ٢٣] أي: متشابها في الحسن والصدق والحق, ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول, المطهرة للقلوب, المصلحة للأحوال, فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧] فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا, وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم, فيصير كله محكماً ويقولون: {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧] أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه, فما اشتبه

منه في موضع, فسره الموضع الآخر المحكم, فحصل العلم وزال الإشكال. ولهذا النوع أمثلة؛

منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير, وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن, وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء. فإذا اشتبهت على من ظن به خلاف الحكمة, وأن هدايته وإضلاله يكون جزافاً لغير سبب وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر الدالة على أن هدايته لها أسباب, يفعلها العبد ويتصف بها مثل قوله في سورة المائدة: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام} [المائدة: ١٦] وأن إضلاله لعبده له أسباب من العبد, وهو توليه للشيطان, قال في سورة الأعراف: {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إنهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّه} [الأعراف: ٣٠] وفي سورة الصف: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]. وإذا اشتبهت آيات على الجبري الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها, بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد, وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم, وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة. كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها, إذا اشتبهت على القدرية النفاة, فظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره, وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها,

تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف, وأن الله خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد, وأن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين. وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق, ويجب على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها, وأنها لا تتنافى, فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم, والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم. وما أُجْمِلَ في بعض الآيات فسرته آيات أخر, وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر, وما كان معروفاً بين الناس وورد فيه القرآن أمراً أو ناهياً, كالصلاة والزكاة والزنا والظلم, ولم يفصله فليس مجملاً, لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون, وأحالهم على ما كانوا به متلبسين, فليس فيه إشكال بوجه والله أعلم.

القاعدة الحادية والعشرون: القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدة جليلة المقدار, عظيمة النفع, فإن الله أمر عباده بالمعروف, وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً وعرفاً, ونهاهم عن المنكر, وهو ما ظهر قبحه شرعا وعقلا وعرفا. وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ووصفهم بذلك. فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة, والصوم والحج, وغيرها من الشرائع الراتبة, فإنه أمر به: كلٌ في وقت. والواجب على الآخِرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة. وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق, والزنا وشرب الخمر ونحوها ثبتت أحكامه في كل زمان ومكان لا يتغير ولا يختلف حكمه. وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمة والأحوال, فهو المراد ههنا. فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت. وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال, ولم يعين لعباده نوعاً خاصاً من الإحسان والبر, ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال, فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر, وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر. فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك, في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم, فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً.

وكذلك ضده من العقوق والإساءة, ينظر فيه إلى العرف.

وكذلك قوله تعالى في سورة النساء {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ١٩] وفي سورة البقرة {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨] , فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المتعارف عند الناس في قطرك, وبلدك وحالك. وذلك يختلف اختلافاً عظيماً, لا يمكن إحصاؤه عداً. فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة, وهذا من آيات القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالى في سورة الأعراف {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا} [الأعراف: ٣١] {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً} [الأعراف: ٢٦] فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس, ولم يعين شيئاً من الطعام والشراب واللباس, وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال, فيتعلق بها أمره حيث كانت, ولا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله في سورة الأنفال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك. فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقت وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى في سورة النساء: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} [النساء: ٢٩] لم يعين لنا نوعاً من التجارة ولا جنساً, ولم يحدد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى, وهذا يدل على أن الله أباح كل ما عد تجارة ما لم ينه عنه الشارع, وأن ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة, فما حقق الرضى من قول أو فعل, انعقدت به المعاوضات والتبرعات.

وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.

القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد أمثلة القرآن

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع, فقد احتوى على أحسن طرق التعليم, وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه. فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال, وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة, كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله, والأعمال العامة الجليلة. ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة, وتمثيلها بالأمور المحسوسة, ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين. وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه. فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء, وقلوب الناس بالأراضي والأودية, وإن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض, فمنها: أراضٍ طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير. كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه, وتعقله, وتعمل به علماً وتعليماً بحسب حالها. كالأراضي بحسب حالها. ومنها أراض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ, فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضهم, كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين وهؤلاء على

خير ولكنهم دون أولئك ومنها: أراض لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ, كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملا.

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في الظهور. وأما مناسبة تشبيهه الوحي بالغيث لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية, والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها معرفة وتصديقا وإيمانا وإرادة لموجبها, وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية, والأعمال الصالحة والهدْي المستقيم, ونفع صاحبها وانتفاع الناس به. وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهاً يتعزز به, ويزعم أنه سينال منه النفع, ودفع الضرر كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأوهاها, فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا إلى ضعفها. كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه ولياً ونصيراً من دون الله إلا ضعفاً, لأن قلبه انقطع عن الله, ومن انقطع قلبه عن الله حلّه الضعف من كل وجه. وتعلقه بالمخلوق زاده وهناً إلى وهنه, فإنه اتكل عليه وظن منه حصول المنافع, فخاب ظنه وانقطع أمله.

وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه بالله وتوحيده وتعلقه بالله وحده, الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر, وهو المتصرف في أحواله كلها, كالعبد الذي استقام على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله, منطلق الإرادة تحررعن رق المخلوقين, غير مقيد لهم بوجه من الوجوه, بخلاف المشرك فإنه كالعبد الأصم الأبكم الذي هو كَلٌّ وعالة على مولاه, أينما يوجهه لا يأت بخير, لأن قلبه متقيد للمخلوقين مُسْتَرَق لهم ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير, ومثله أيضاً كالذي خر من السماء فتخطفته الطيور ومزقته كل ممزق.

وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويدعون لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات, وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم على خلقه, فكيف ببعضهم!! فكيف بفرد من مئات الألوف منهم!! وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئاً لا يقدروا على استخلاصه منه ورده, فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف متقسِّم قلبه بين عدة آلهة, كالعبد بين الشركاء المتشاكسين, لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر. فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم. فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه, ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه. وأما الموحد فإنه خالص لربه, ولا يعبد إلا خالقه وبارئه ولا يرجو غيره ولا

يخشى سواه, وقد اطمأن قلبه واستراح, وعلم أن الدين هو الحق وأن عاقبته أحمد العواقب, ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية, فهو في حياة طيبة, ويطمع في حياة أطيب منها.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين, فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع وأعلاها, تنتابه الرياح النافعة, وقد ضَحَى وبرز للشمس, وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة, فإن لم تكن غزيرةً فإنها كافيةٌ له كالطل الذي ينزل من السماء, ومع ذلك فأرضُه أطيب الأراضي وأزكاها. فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زَهاءِ الأشجار وطيب الظلال ووفور الثمار, فصاحبه في نعيم ورغد متواصل, وهو آمن من انقطاعه وتلفه, فإن كان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف من العمل, وعنده عائلة ضعاف لا مساعدة منهم ولا كفاءة, وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته, ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه وأتلفه عن آخرهم. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة. فيا ويحه, بعد ما كان بستانه زاكيا أصبح تالفا قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته. فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها. فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله على الإيمان, والعمل الصالح. وبستان من أبطل عمله بما ينافيه

ويضاده, ويؤخذ من ذلك أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلا أنه ليس له بستان أصلاً.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع, فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل من حياة القلوب الطيبة. وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة, فأثمر عملُه كل زوج بهيج.

وقد مثّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء, فيأتيه وقد اشتد به الظمأ, وأنهكه الإعياء, فيجده سراباً. ومثّله برماد الشيء المحترق, فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية. وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله, فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة, وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له, وهو كان يعتقده نافعا له, فإذا وصله ولم يجده شيئا تقطعت نفسه حسرات ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الذكي الزاهي. ومثّل نفقات المرائين بحجر أمْلسَ عليه شيء من تراب, فأصابه مطر شديد فتركه صلداً لا شيء عليه, لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص, فهو قاس كالحجر, فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان, بل عن رياء وسمعة لم

تؤثر في قلبه حياةً ولا زكاةً. كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئاً.

وهذه الأمثال إذا طبقت على مُمَثَّلاتها وضَّحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير والشر والكمال والنقصان.

ومثّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة, فاستوقد ناراً من غيره, ثم لما أضاءت ما حوله, وتبين له الطريق, ذهب نورهم وانطفأ ضوءهم, فبقوا في ظلمة عظيمة أعظمَ من الظلمة التي كان عليها أولاً. وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان, فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة, واستولت عليه الحيرة, فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه, وبقي في ظلمة متحيراً. فهم لا يرجعون لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى, واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية, لأنه رأى الحق فتركه, وعرف الضلال فاتبعه. وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذين تبصروا وعرفوا, ثم غلبت عليهم الأعراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانهم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩] ينطبق على المنافقين الضالين المتحيرين الذين

يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه, لأنهم أعرضوا عنه, وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وسادتهم.

ومثّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع, تعجب الناظرين, وتغر الجاهلين, ويظنون بقاءها, ولا يؤَمِّنون زوالها, فَلَهَوا بها عما خلقوا له, فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيماً, وبعد الحياة يبساً رميماً. وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر, ولكن سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل.

القاعدة الثالثة والعشرون: إرشادات القرآن على نوعين:

أحدهما: أن يرشد أمراً ونهياً وخبراً إلى أمر معروف شرعاً أو معروف عرفاً كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة, ويعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر: أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية داخلة فيها.

وأما النوع الثاني: وهو المقصود هنا, فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض, وما خلق الله فيها من العوالم, وإلى النظر فيها. وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا, وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} [الجاثية: ١٣] فنبه العقول على التفكر فيها, واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها. وذلك أننا إذا فكرنا فيها, ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها, ولأي شيء خلقت ولأي فائدة أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة, والحكم البالغة, وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة, وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار, وعلى صدق رسله وحقيقة ما جاءوا به. وهذا النوع قد أكثر منه أهل العلم. وكلٌّ ذكر ما وصل إليه علمه, فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب. وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما, وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها ونستخرج منها المنافع المتنوعة, فإن الله سخرها لنا, وسلطنا على استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية. فذلل لنا أرضها لنحرثها ونزرعها ونغرسها, ونستخرج معادنها وبركتها, وجعلها طوع علومنا وأعمالنا لنستخرج منها الصناعات النافعة. فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها. لاسيما في هذه الأوقات .كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عُرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حد له. وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق. وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب. وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً, كما هي مطلوبة لازمة عقلاً, وأنها من الجهاد في سبيل الله, ومن علوم القرآن.

فإن الله نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس, وأنه سخر لهم ما في الأرض. فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق إلى تحصيلها, وهي معروفة بالتجارب. وهذا من آيات القرآن. وهو أكبر دليل على سعة علم الله وحكمته ورحمته بعباده بأن أباح لهم جميع النعم, ويسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتاً بعد وقت. وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكر بها العباد كل ما ينفعهم فيسلكونه وما يضرهم فيتركونه, وأنه هداية لجميع المصالح.

القاعدة الرابعة والعشرون: القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال في الأمور, ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠] وقال: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة. والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وأن لا يغلو ويتجاوز الحد, كما لا يقصر ويدع بعض الحق. ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما كان عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في آيات كثيرة ونهى عن مجاوزة ذلك, وتعدي الحدود وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول, وما فقد فيه الأمران أو أحدهما فهي من الأعمال اللاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم: أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم, ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق, وتوقيرهم واتباعهم, ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله, ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك شيء. كما نهى عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم أوعدم اتباعهم. وذمَّ الغالين فيهم كالنصارى ونحوهم في عيسى, كما

ذمَّ الجافين لهم كاليهود حين قالوا في عيسى ما قالوا, وذمَّ من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض, وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك يتعلق هذا الأمر في حق العلماء والأولياء فتجب محبتهم ومعرفة أقدارهم, ولا يحلُّ الغلو فيهم, وإعطاؤهم شيئاً من حق الله, وحق رسوله الخالص, ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم, فمن عادى لله ولياً فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات, ونهى عن الإمساك والتقصير والبخل, كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال, ونهى عن الجبن, وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس, كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة, ونهى عن الجزع والهلع والتسخط.

كما نهى عن التجبر والقسوة وعدم الرحمة في آيات كثيرة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين والأقارب والأصحاب ونحوهم والإحسان إليهم قولا وفعلاً, وذمَّ من قصر في حقهم أو

أساء إليهم قولاً وفعلاً, كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس, ونهى عن السرف والترف, كما نهى عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط.

القاعدة الخامسة والعشرون: حدود الله قد أمر بحفظها ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالى: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ} [التوبة: ١١٢] وقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩] وقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: ١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة, التي أمرهم بفعلها, والمحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة, وترك المحرمات الظاهرة والباطنة. ويتوقف هذا الفعل وهذا الترك على معرفة الحدود على وجهها, ليعرفَ ما يدخل في الواجبات والحقوق, فيؤديها على ذلك الوجه كاملة غير ناقصة, وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها, ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله, وأثنى على من عرف ذلك.

وحيث قال الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩] كان المراد بها: ما أحله لعباده, وما فصله من الشرائع. فإنه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها. كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح, ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرم من الخبائث. وكما أمر بملازمة ما شرعه من

الأحكام في النكاح والطلاق والعدة وتوابع ذلك, ونهى عن تعدي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعاً. وكما أمر بالمحافظة على ما فصله من أحكام المواريث ولزوم حده. ونهى عن تعدي ذلك, وتوريث من لا يرث, وحرمان من يرث, وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: ١٨٧] كان المراد بذلك: المحرمات. فإن قوله: {فَلا تَقْرَبُوهَا} نهي عن فعلها, ونهي عن مقدماتها وعن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها. كما نهاهم عن المحرمات على الصائم, وبين لهم وقت الصيام فقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} . وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئاً إلا أن يأتين بفاحشة مبينة, قال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} وكما بين المحرمات في قوله: {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى} [الإسراء: ٣٢] {وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٣٤]. فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله, والمحافظة عليها. كما أن أصل كل الشر وأسباب العقوبات الجهل بحدود الله, أوترك المحافظة عليها أو الجمع بين الشرين. والله أعلم.

القاعدة السادسة والعشرون: الأصل أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود إلا في آيات يسيرة

وهذه قاعدة لطيفة. فإن الله متى رتب في كتابه حكماً على شيء, وقيده بقيد, أو شرط لذلك شرطاً, تعلق الحكم به على ذلك الوصف, الذي وصفه الله تعالى. وهذا في القرآن لا حصر له. وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين – إذا تكلموا عليها –: هذا قيد غير مراد. ففي هذه العبارة نظر؛ فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة, وقد تظهر للمخاطب وقد تخفى. وإنما مرادهم بقولهم [غير مراد] ثبوت الحكم لها. فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع, ويذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده, وليظهر لهم حسنها, إن كانت مأموراً بها, أو قبحها إن كانت منهياً عنها. وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عياناً.

فمنها قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [المؤمنون: ١١٧] ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر, وأنه ليس له برهان مطلقاً. وإنما قيدها الله بهذا القيد بياناً لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك ليس له دليل شرعي, ولا عقلي قطعاً, والمشرك ليس بيده ما يُسوِّغ

له شيئاً من ذلك. ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض نفسية ومقاصد سيئة, وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستجيزه من له أدنى إيمان ولا معقول.

ومنها قوله تعالى: {وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} [النساء: ٢٣] مع أن كونها في حجره أو في غير حجره ليس شرطاً لتحريمها, فإنها تحرم مطلقاً. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعاً لهذه الحالة, وأنه من القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجليةً بثياب قبحها, لينفر عنها ذوي الألباب, مع أن التحريم لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة. فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقاً, أو محرمة مطلقاً, سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها قوله تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [الإسراء: ٣١] و: {مِنْ إِمْلاقٍ} [الأنعام: ١٥١] مع أن المعلوم النهي على قتل الأولاد على أي حال. فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله: كونه قتل بغير حق, وقتل مَنْ جُبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقةٍ لا نظير لها, وكون ذلك صادراً عن التسخط لقدر الله, وإساءة الظن بالله. فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرماً وتسخطاً بقدر الله,

فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم, وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم, واشتدت فاقتهم, فصار الأمر بالعكس. وأيضاً فإنه إذا كان منهياً عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه, ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى. وأيضاً ففي هذا: بيان للحالة الموجودة غالباً عندهم, فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة في الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً} [البقرة: ٢٢٨] فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع, وإنه يستحق ردها سواء أراد الإصلاح أم لم يرده, فيكون ذكر هذا القيد حثاً على لزوم ما أمر الله به من قصد الإصلاح, وتحريماً لردها على وجه المضارة, وإن كان يملك ردها, كقوله تعالى: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [البقرة: ٢٣١]. ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام, وأن الزوج لا يستحق رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح. فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها, وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ} [البقرة: ٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضراً وسفراً. ففائدة هذا القيد: أن الله ذكر أعلى الحالات, وأشد الحاجات للرهن, وهي هذه الحالة في السفر,

والكاتب مفقود, والرهن مقبوض, فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت فيها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض, وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض, وأن قبضه ليس شرطاً لصحته, وإنما ذلك للاحتياط وزيادة الاستيثاق, وكذلك فقد الكاتب.

ومنها قوله: {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} [البقرة: ٢٨٢] مع أن الحق يثبت بالرجل والمرأتين ومع وجود الرجلين, ولكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق, بدليل أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين, والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة, وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم, لتمام راحتهم وحسم اختلافهم ونزاعهم.

وأما قوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى:٩] فإنها من أصل هذه القاعدة, ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع, وأنه يجب التذكير, نفعت الذكرى أو لم تنفع. ولكن قصر الآية على هذا غلط, فنفع الذكرى إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه. فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهي عنه في هذه الحالة, كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهى عن الأمر

بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به, وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه من شر أو ضرر. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به بل منهي عنه, وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} [النحل: ١٢٥] فعُلم أن هذا قيد مراد ثبوت الحكم بثبوتها, وانتفاء الحكم لانتفائه, والله أعلم.

ومنها قوله تعالى: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقّ} [البقرة: ٦١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق. فهذا نظير ما ذكره في الشرك, وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة لصاحبها, بل صاحبها أعظم الناس جرماً, وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام: ١٥١] فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل, [والحق] الذي قيّدها الله به جاء مفسَّراً في قوله صلى الله عليه وسلم ـ: (النفس بالنفس, والزاني المحصن, والتارك لدينه المفارق لجماعة). رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

ومنها قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا} [النساء: ٤٣] مع أن

فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر, فإنه إذا فُقد جاز التيمم حضراً وسفراً, ولكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء, أما الحضر فإنه يندر فيه عدم وجود الماء جداً. ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم وإن كان الماء موجوداً, وهذا في غاية الضعف, وهدي الرسول وأصحابه مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء: ١٠١] مع أن الخوف ليس شرطاً لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق. ولما سئل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذا أجاب (صدقة تصدق الله بها عليكم, فاقبلوا صدقته) ويعني وصدقة الله وإحسانه في كل زمان ومكان لا يتقيد بخوف ولا غيره. ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية, فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها. وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيئاتها وشروطها وإنما يقصر عددها. ولا ينافي هذا كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال. وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

القاعدة السابعة والعشرون: المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع, وعظيمة الوقع. وذلك أن كل موضع يسوق الله فيه حكماً من الأحكام أو خبراً من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر, إلا وجدت الله قرَن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان, فيبينه أحسن بيان. وهذا أعلى أنواع التعليم, الذي لا يبقي إشكالاً إلا أزاله, ولا احتمالاً إلا أوضحه. وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته. وذلك في القرآن كثير جداً. ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة, وتحسن للداخل الدخول إليها:

فمن ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا} [النمل: ٩١] لما خصها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} [النمل: ٩١].

ومنها قوله تعالى: {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ} [هود: ١٠٩] لما كان قد يقع في الذهن أنهم على حجة وبرهان فأبان بقوله: {مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ} [هود: ١٠٩] أنهم ضُلَّال اقتدوا بمثلهم, ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم, وعلى يقين من مذهبهم,

وربما يتوهم أيضاً أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك بقوله: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَأنهم لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [هود: ١٠٩, ١١٠].

ولما قال تعالى: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ٩٥] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين ولو كان القاعدون معذورين. أزال هذا الوهم بقوله: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [النساء: ٩٥].

وكذلك لما قال: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا} [الحديد: ١٠] ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة, فأزال هذا الوهم بقوله: {وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: ١٠] ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يُستحق بمجرد هذا العمل المذكور, ولو خلا من الإخلاص, أزال هذا الوهم بقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠].

ومنها: قوله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} [النمل: ٤٨] ربما وقع في الذهن أنهم يفسدون وقد يصلحون, فأزال

هذا الوهم بقوله: {وَلا يُصْلِحُونَ} [النمل: ٤٨] أي: لا خير فيهم أصلاً مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع {وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ} فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة. فأزال هذا الاحتمال بقوله: {إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} [النمل: ٨٠] فهذه الحالة لا تقبل سماعاً ولا رؤية لتحصل الإشارة, وهذا نهاية الإعراض.

ومنها قوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافاً من غير سبب. فأزال هذا بقوله: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦] أي: بمن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك, فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومن كان حسن الفهم رأى من هذا النوع شيئاً كثيراً.

القاعدة الثامنة والعشرون: في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل الخير كله والفلاح, وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي, أكثر الله من ذكره في القرآن جداً: أمراً به, ونهياً عن ضده, وترغيباً فيه, وبياناً لأوصاف أهله, وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي. فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي, أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيويه بوصف الإيمان, فإنها تتناول كل مؤمن, سواء كان متمما لواجبات الإيمان وأحكامه, أو ناقصاً في شيءٍ منها. وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقاً الجامع لمعاني الإيمان. وهذا هو المراد بيانه هنا. فنقول: وصف الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه, وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه, وبترك جميع المعاصي, وبالمبادرة بالتوبة مما صدر منه منها, وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم الآثار الطيبة. فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة: وهي الإيمان بالله, وملائكته, وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره, وأنهم يؤمنون بكل ما أتت به الرسل كلهم ويؤمنون بالغيب, ووصفهم بالسمع والطاعة, والانقياد ظاهراً وباطناً, ووصفهم بأنهم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} [الأنفال: ٢ - ٤]. ووصفهم بأن جلودهم تقشعر, وعيونهم تفيض من الدمع, وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره, وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة, وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عموماً, وفي الصلاة خصوصاً وأنهم عن اللغو معرضون, وللزكاة فاعلون, ولفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون, ولأماناتهم وعهدهم مُراعون. ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه, وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون. ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين واللاحقين, وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين, وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين, ويتبرؤن من موالاة جميع أعداء الدين, وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر, ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم. فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل, والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات وترك المنهيات, والوقوف الحدود الشرعية.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من العقاب, واستحق الثواب, ونال كل خير رُتِّب على الإيمان. فإن الله رتب

على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة, كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها. رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء, ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار, والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة وتعثر أحوالهم, والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة, والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر على الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد, ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسيره العبدَ لليسرى وتجنيبه للعسرى, وطمأنينة القلوب وراحة النفوس والقناعة التامة, وصلاح الأحوال, وصلاح الذرية, وجعلهم قرة عين للمؤمن, والصبر عند المحن والمصائب. وحمْل الله عنهم الأثقالَ, ومدافعة الله عنهم جميع الشرور, والنصر على الأعداء, ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم, وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه, ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة. فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته, ونيل ثوابه, وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب, وإزالة الشدائد أوتخفيفها. وثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرة, وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على الإيمان, كما أن الشرور مرتبة على فقده, والله أعلم.

القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة, وأصناف جليلة من العلوم. فعلى العبد أن يعرف المقصود من كل نوع منها, ويعمل على هذا, ويتتبع الآيات الواردة فيه, فيحصِّل المراد منها: علماً وتصديقاً وحالاً وعملاً.

فأجلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد, وما لله من صفات الكمال, فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها, فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد, وعَرَفَ أنه كما ليس لله مثيل في ذاته فليس له مثيل في صفاته, وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب علمه بكمال الله وعظمته. فإن القلوبَ مجبولةٌ على محبة الكمال, فكيف بمن له كل الكمال؟ ومنه جميع النعم الجِزَال. ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله, وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد لربه, وفهمه لمعاني صفاته ونعوته وامتلاء القلب بمعرفتها ومحبتها. وأيضاً يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإن هذا هو أصل العلم وأصل التعبد.

ومن علوم القرآن: صفات الرسل وأحوالهم, وما جرى لهم وعليهم, مع من وافقهم ومن خالفهم. وما هم عليه من الأوصاف الوافية. فإذا مرت عليه هذه الآيات عرف بها أوصافهم وازدادت معرفته ومحبته لهم, وعرف ما هم عليه من الأخلاق والأعمال خصوصاً إمامهم وسيدهم محمد. صلى الله عليه وسلم .. فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم بحسب ما يقدر عليه, ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ومحبتهم واتباعهم. وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الكفاية. ويستفيد أيضاً الاقتداء بتعليماتهم العالية وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم ولطفَ جوابهم وتمام صبرهم. فليس القصد من قصصهم أن تكون سمراً!! وإنما القصد أن تكون عِبَراً.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير وأهل الشقاوة والشر. وفي معرفته لهم ولأوصافهم ونعوتهم فوائد الترغيب والاقتداء بالأخيار, والترهيب من أحوال الأشرار, والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء, وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم, ووصل بها أولئك إلى دار الجحيم, ومحبة هؤلاء الأتقياء من الإيمان, كما أن بغض أولئك من الإيمان. وكلما كان العبد أعرف بأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر. وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر, فإن تمامَ الإيمان بذلك يتوقف على معرفة ما يكون فيه, والترغيب والترهيب والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجزيل, والرهبةُ من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي. وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ فإن العباد محتاجون إلى معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه, وبالعمل بذلك والعلم سابق للعمل, وطريق ذلك: إذا مر على القارئ نص فيه أمر بشيء عرفه وفَهِم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه, وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائماً به فليحمد الله, ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصراً فيه فليعلم أنه مطالب به وملزم به. فليستعن بالله على فعله, وليجاهد نفسه على ذلك. وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه, وما يدخل في ذلك الذي نهى الله عنه, ثم لينظر إلى نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله على توفيقه, ويسأله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثبات على فعل الطاعات؛ وليجعل الداعي له على الترك امتثال طاعة الله, ليكونَ تركه عبادةً, كما كان فعله للطاعة عبادة, وإن كان غير تارك له فليتبْ إلى الله منه توبة نصوحا جازمة وليبادر, ولا تمنعه

الشهوات الدنية ما تدعوه إليه النفس الأمارة بالسوء. فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملاً على هذه الطريقة فإنه ماش على الصراط المستقيم والطريقة المثلى فيما عليه من الاسترشاد بكتاب الله وحصل له بذلك علم غزير وخير كثير.

القاعدة الثلاثون: أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم, وبما دل عليه من المعنى, وبما تعلق به من الآثار

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالى. وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيِّف عن ثمانين اسما .كُررت في آيات متعددة, بحسب ما يناسب المقام, كما تقدم بعض الإشارة إلى المناسبة بها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر, والثواب والعقاب فعليك أن تؤمن بأنه عليم, وذو علم عظيم, ومحيط بكل شيء, قدير, وذو قدرة وقوة عظيمة ويقدر على كل شيء, ورحيم, وذو رحمة عظيمة ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة فالاسم دل على الوصف, وذلك دل على المتعلق. فمن نفى واحداً من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته, الذي هو أصل التوحيد. ولنكتف بهذا الأنموذج ليعرف أن الأسماء كلها على هذا النمط.

القاعدة الحادية والثلاثون: ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ومتعلقاتها ولوازمها. وهي على نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات: برها وفاجرها بل مكلفوها وغير المكلفين, حتى الجمادات. وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها, وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها, وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه, فيربيهم بالإيمان الكامل, ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة, ويدفع عنهم الأخلاقَ الرذيلة, وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير, والحفظ من كل شر, وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة, وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أُطلقت ربوبيته تعالى فإن المراد بها المعنى الأول, مثل قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٦٤] ونحو ذلك.

وحيث قُيدت بما يحبه ويرضاه, أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم, فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة؛ ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالباً فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. ليلحظ العبد هذا المعنى النافع.

ونظير هذا المعنى الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً} [مريم:٩٣] فكلهم مماليكه, وليس لهم من الملك والأمر شيء. ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً} [الفرقان: ٦٣] ثم ذكر صفاتهم الجليلة. وكقوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] وفي قراءة {عبدِهِ} وقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١] وقوله {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} . [البقرة: ٢٣] فالمراد بهذا النوع من قاموا بعبودية الله, وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم. فالعبودية الأولى: يدخل فيها البر والفاجر. والعبودية الثانية: صفة الأبرار. ولكنَّ الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله, والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

القاعدة الثانية والثلاثون: إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده, وإذا نهى عن شيء كان آمراً بضده, وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتاً للكمال

وذلك: بأنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده, فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين, وصلة الأرحام, والعدل والإحسان, كان ناهياً عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق والقطيعة.

وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة, إلى آخر المذكورات. كان آمراً بالتوحيد وفعل الصلاة إلى آخرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر, وإقبال القلب على الله إنابة ومحبة وخوفاً ورجاء, كان ناهياً عن الجزع والسخط وكفران النعم وإعراض القلب عن الله في تعلق هذه الأمور بغيره.

وحيث نهى عن الجزع وكفران النعم وغفلة القلب, كان آمراً بالصبر إلى آخر المذكورات. وهذا ضربُ مثلٍ, وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط.

وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات, فحيث أثنى على نفسه, وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب: كالنوم والسِّنة واللُّغوب والموت, وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها, والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلاً وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافاً بلا حكمة, فَلتَضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته, وكمال قيوميته, وقدرته, وسعة علمه, وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه, حتى ينفي تكميلاً للكمال.

وكذلك إذا نفى الله عن كتابه الريب والاختلافَ والشك والإخبارَ بخلاف الواقع كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب, واشتماله على الأحكام, والانتظام التام والصدق الكامل, إلى غير ذلك من صفات كتابه.

وكذلك إذا نفى عن رسوله صلى الله عليه وسلم الكذب, والتقول على الله, واتباع الهوى والجنون والسحر والشعر ونحوها, كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه, وأنه لا ينطق عن الهوى, إن هو إلا وحي يوحى, ولكمال عقله ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته. فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها, تنل خيراً كثيراً. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والثلاثون: المرض في القرآن -مرض القلوب- نوعان: مرض شبهات وشكوك, ومرض شهوات ومحرمات

والطريق إلى تميز هذا من هذا ـ مع كثرة ورودهما في القرآن ـ يُدرك من السياق. فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين, كان مرضَ الشكوك والشبهات, وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرضَ الشهوات.

ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته, وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه, وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه. فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه, وعرف الباطل واجتنبه, فإن كان علمه شكاً وعنده شبهات تُعارض ما أخبر الله به من أصول الدين وفروعه, كان علمه منحرفاً وكان مرض قلبه قوة وضعفاً بحسب هذه الشكوك والشبهات. وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله, كان ذلك انحرافا في إرادته ومرضاً. وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفاً في علمه وفي إرادته. فمن النوع الأول: قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة: ١٠] وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ {فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً} [البقرة: ١٠] عقوبة

على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة, كلها منهم, وهم فيها غير معذورين. ونظير هذا قوله تعالى في سورة براءة: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥]. وكذلك قوله تعالى: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} [الحج: ٥٣] فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به. ومن الثاني: قوله تعالى في سورة الأحزاب: {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً} [الأحزاب: ٣٢] أي: مرض شهوة وإرادة للفجور, أقل شيء من أسباب الافتنان يوقعه في الفتنة طمعاً أو فعلاً. فكل من أراد شيئاً من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة, ولو كان صحيحاً لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات: {وَلكنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً} [الحجرات: من الآيتين ٧, ٨]. فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله, فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم. وليسأل الله الثبات على ذلك, والزيادة من فضل الله ورحمته.

القاعدة الرابعة والثلاثون: دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلى بالاشتغال بما يضره, وحُرم الأمرَ الأول

وذلك أنه ورد في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان, ولما استكبروا عن الانقياد للرسل, بزعمهم: أنهم بشر, ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين, ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه, ثم تركوه, قلب الله قلوبهم, وطبع عليها وختم, فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم. ولما بين لهم الصراط المستقيم, وزاغوا عنه اختياراً ورضىً بطريق الغي على طريق الهدى والرشد, عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم, وجعلهم حائرين في طريقهم. ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين. ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة. ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه, وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين. {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة: الآيات ٧٥ - ٧٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً, يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم ثم تركها بعد أن عرفها وزهد فيها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق الضلالة الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدى. فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادراً في طريق غوايته ممعناً في سبيل ضلالته. جزاء على فعله, كقوله في اليهود في سورة البقرة: {نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأنهم لا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة: من الآيتان: ١٠١, ١٠٢] فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد, وإصلاح شئونهم وإسعادهم, ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها وأضرها للعقول, وأفتكها في إفساد المجتمع, ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن, ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.

القاعدة الخامسة والثلاثون: في القرآن عدة آيات في الحث على أعلى المصلحتين, وتقديم أهون المفسدتين, ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته

وهذه قاعدة جليلة. نبه الله عليها في آيات كثيرة. فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال وتقديم الأعلى منها كقوله في سورة الحديد: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠] وقوله في سورة التوبة: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: ١٩] وكقوله في سورة النساء: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء: ٩٥]. ومن الثاني: قوله تعالى في سورة البقرة: {يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧] بين تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين من قتال في الشهر الحرام ـ وإن كان مفسدة ـ فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه, وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله, وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبرُ من القتال في الشهر الحرام. وقوله في سورة الفتح: {وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ} [الفتح: ٢٥]

فكف الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضي من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك: من إصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذى أو القتل, ما يكون سبباً في لحوق المعرة بجيش المؤمنين. وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها الضرر على المسلمين. ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين. ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة, لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضرراً من الصبر والإخلاد إلى السكينة, مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن. ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى: ٩] يعني فإن ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين. والآيات في هذا النوع كثيرة جداً. ومن النوع الثالث: قوله تعالى في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ} [البقرة: ٢١٩]. وهذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه, فإن رحمة الله وحكمته لابد أن تقتضي المنع منه وتحريمه على عباده. وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعاً فإنه هو المعقول بين الناس المفطورون على استحسانه, والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية, والله أعلم.

القاعدة السادسة والثلاثون: طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه, والنهي عن ظلمه, والندب إلى العفو عنه والإحسان

وهذا في آيات كثيرة, كقوله تعالى في سورة النحل: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل:١٢٦] وقوله في سورة الشورى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى:٤٠] فذكر المراتب الثلاثة, ولما كان القتال في المسجد الحرام محرماً قال تعالى في سورة البقرة: {فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ} [البقرة: ١٩١: ١٩٤] وهو كل ما حرم الله وأمر باحترامه. فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه, بقدر ما اعتدى به لا أكثر. وقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [البقرة: ١٩٤] وقوله في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} [البقرة:١٧٨] وقوله في سورة المائدة: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [المائدة: ٤٥] وقوله في سورة الإسراء: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ

جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً} [الإسراء: ٣٣] وقوله في سورة النساء: {لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً} [النساء:١٤٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة, والله أعلم.

القاعدة السابعة والثلاثون: اعتبر الله القصد والإرادة في ترتيب الأحكام على أعمال العباد

وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله: (إنما الأعمال بالنيات) متفق عليه. والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جداً في هذا الأصل.

فمنها ـ وهو أعظمها ـ أنه رتب حصول الآجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى, لما ذكر الصدقة والمعروف, والإصلاح بين الناس, قال في سورة النساء: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: ١١٤] وقال في سورة البقرة: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٦٥] وفي مقابله قال: {رِئَاءَ النَّاسِ} [البقرة: ٢٦٤]. ووصف الله نبيه وخيار خلقه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا. وقال في الرجعة في سورة البقرة: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً} [البقرة: ٢٢٨] وقال في سورة البقرة: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} [البقرة: ٢٢٥]. وقال في سورة النساء: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ} [النساء: ١٢] وقال في سورة النساء: {فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ

مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً} [النساء: ٤] وفي سورة البقرة: {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ١٨٨] وفي سورة البقرة: {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة: ٢٢٠] وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة: {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: ٢٨٦] فقال الله [قد فعلت] وقال في سورة الأحزاب: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} [الأحزاب: ٥], وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة, ثم قال في سورة النساء: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} [النساء:٩٣] وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة: {وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ـ الآية} [المائدة: ٩٥] وقال في سورة البقرة: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة: ٢٣٥] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان, وصحتها وفسادها, ورتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب.

القاعدة الثامنة والثلاثون: قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه, ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجاباً أو استحباباً

وهذه قاعدة لطيفة, اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات:

منها: المُطلَّقة: فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة على فراق بعلها, أمر الله بتمتعها على الموسع قدره وعلى المقتر قدره, متاعاً بالمعروف.

وكذلك من مات زوجها عنها, فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغّب فيها. وكذلك أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة, إن كانت رجعية, أو كانت حاملاً مطلقة.

وقال تعالى في سورة النساء: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً} , [النساء: ٨].

ويدخل الواجب والمستحب في مثل قوله في سورة الأنعام: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} , [الأنعام: ١٤١].

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين, وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين.

وقال تعالى في سورة الإسراء: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} , [الإسراء: ٢٣, ٢٤] , إلى قوله: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} , [الإسراء: ٢٦].

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات. وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات. فهذا أصل قد اعتبره الله, وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في وقت المناسبات ويعتبره عند وجود سببه.

القاعدة التاسعة والثلاثون: في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة, وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية, وإلى دفع المفاس, ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩], وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} , [الشورى: ٣٨] , فالأمر مفرد ومضاف إلى المؤمنين, وفي الآية الأولى: قد دخلت عليه: [ال] , المفيدة للعموم والاستغراق, يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم واستجلاب مصالحهم واستدفاع مضارهم, معلقٌ بالشورى والتعاون على الاهتداء إلى الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم, وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلى تفكك قواهم وانحلال عراهم. وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى. فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بأعمال أفكارهم مجتمعة, فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه, وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه, وإذا كان في ذلك مصلحة ومضرة, نظروا: أيها أقوى وأولى وأحسن عاقبة, وإذا رأوا أمراً من الأمور هو المصلحة ولكن ليست أسبابه عتيدة عندهم ولا لهم قدرة عليها نظروا بأي

شيء تدرك الأسباب وبأي حالة تنال على وجه لا يضر. وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة, سعوا لذلك بحسب اقتدارهم, ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم الملقي إلى التهلكة, وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا, وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان, سلكوا ما تعينت مصلحته فيقدمون في موضع الإقدام, ويحجمون في موضع الإحجام, وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية, دقيقة ولا جليلة إلا تشاوروا فيها, وفي طريق تحصيلها وتنميتها, ودفع ما يضادها وينقصها. فهذا النظام العجيب الذي أرشد إليه القرآن هو النظام الذي يصلح في كل زمان ومكان, ولكل أمة ضعيفة أو قوية.

ومن ذلك قوله في سورة الأنفال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} , [الأنفال: ٦٠] , فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة عقلية, ومعنوية ومادية, مما لا يمكن حصر أفراده, وفي كل وقت يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه ومن ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} , [النساء: ٧١] , ونحوها من الآيات التي أرشد

الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء, فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا, ولكل وقت لبوسه.

ومن عجيب ما نبه إليه القرآن من النظام الوحيد, أن الله عاتب المؤمنين بقوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} , [آل عمران: الآية١٤٤] , فأرشد عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طريقها, بحيث لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيس وإن عظم. وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة أناس, إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره, وأن تكون الأمة متوحدة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها. قصدهم جميعاً أن تكون كلمة الله هي العليا, وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم.

وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: الآية١٦], أي: اتقوا غضبه وعقابه بالقيام بما أمر به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين, فكل مصلحة أمر الله بها وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة, فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة. فلا يكلفهم الله ما لايطيقون. وكذلك كل مفسدة ومضرة لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة واللاحقة فإنها داخلة في تقوى الله تعالى, وذلك أنّ لازم الحق حق, والوسائل لها أحكام المقاصد.

ومن الآيات الجامعة في السياسة قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} [النساء: ٥٨], والآية التي بعدها. فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة, من أجَلِّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة, الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدى الأمانات إلى أهلها بأن يجعل فيها الأَكْفاء لها, وكل ولاية لها أَكْفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال, فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها, فيجب تولية الأمثل فالأمثل: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦]. فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده. ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السموات والأرض إلا به, فالعدل قوام الأمور وروحها, وبفقده تفسد الأمور, والحكم بالعدل من لازمه معرفة العدل في كل أمر من الأمور, فإذا كان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأَكْفاء للأعمال وَجَرَتْ تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد, متجنبين للظلم والفساد, ترقت الأمة وصَلَحت أحوالها, وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور, فهل يوجد أكمل وأغنى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع الله فيها الحدود على الجرائم, العقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد, وتطهير المجتمع من فسادهم, وتنقيته من جرائمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم. والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال. وكذلك ما فيها من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق, والدعوة إلى الصالح للأمة, وفي الأمور التي لا محظور فيها, كما أن الحدود والعقوبات والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها رد الحرية الزائفة الكاذبة الباطلة التي يتشدق بها الحمقى والسفهاء الذي عموا وصموا, فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة. إن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم. وأما إطلاق عِنان الجهل والظلم والأقوال الضارة المحللة للأخلاق, فإن من أكبر أسباب الشر والفساد, المؤدية إلى الفوضى المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة. فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج, ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج, فالشارع فتح الباب للأولى, وأغلقه عن الثانية, تحصيلاً للمصالح ودفعاً للمضار والمفاسد, والله أعلم.

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة, والحمية من الأمور الضارة, ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات. ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد. وقد نبه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ الصحة ودفع المؤذي: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا} , [لأعراف: ٣١] , فأمر الله بالأكل والشرب اللذي لا تستقيم الأبدان إلا بهما, وأطلق ذلك ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان, وينفعه في كل وقت وحال. ونهى عن الإسراف في ذلك, إما بالزيادة في كثرة المأكولات والمشروبات, وإما بالتخليط في المطعوم والأوقات, وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر منع منه, فكيف بغيره؟. وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره, حمية له عن المضرات كلها. وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي, وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن, فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟. ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة, فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية, ودفع ما يضر بمدافعته الذي لم يقع, والتحرز عنه وبمعالجة الحادث بالطرق الطبية النافعة. وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة

والصوم والحج وبقية الأعمال والإحسان إلى الخلق فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضا الله وقربه وثوابه, والإحسان إلى عبيده, فإن فيها صحة للأبدان وتمريناً لها, ورياضة وراحة للنفس, وفرحاً للقلب وأسراراً خاصة تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات. وبالجملة فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة, والله أعلم.

القاعدة الحادية والأربعون: يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها, ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من المصالح, ومن جهة النعم إلى النظر إلى ضدها

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة, وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله, ومن أعظم ما يرقى العاملين إلى كل خير ديني ودنيوي, فإن العامل إذا اشتغل بعمله الذي هو وظيفة وقته, فإن قصر فِكره وظاهره وباطنه عليه نجح, ويتم له الأمر بحسب حاله. وإن نظر وتشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعدُ فترت عزيمته, وانحلت همته وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه. ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه, وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله, فيفوت الأول والثاني, بخلاف من جمع قلبه وقالبه, وصار أكبر همه هو القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته؛ فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوة ونشاط ويتلقاه بشوق, وصار قيامه بالأول معونة على قيامه بالثاني. ومن هذا: قوله تعالى مصرحاً بهذا المعنى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ

أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} , [النساء: ٧٧]. فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي, فلما جاء العمل الثاني ضعفوا عنه كل الضعف. ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحد في قوله: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} , [آل عمران: ١٤٣] , وقد كشف هذا المعنى كل الكشف قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً} , [النساء: ٦٦] , لأن فيه تكميلاً للعمل الأول, وتثبيتاً من الله, وتمرناً على العمل الثاني. ونظيره قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ {٧٥} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ {٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِم} , [التوبة: ٧٥ - ٧٧]. فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم, وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته, ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت, فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه, وصار القيام بالعمل الأول معيناً على الثاني, وهذا المعنى في القرآن كثير.

وأما الأمور المتأخرة فإن الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هممهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير, والترهيب من أفعال الشر, بذكر عقوباتها, وثمرتها الذميمة.

فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذي لم يجيء وقته, وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه, وتامل ما يترتب عليه من الخيرات استجد نشاطه, وقوي عليه وهانت عليه مشقته, كما قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤].

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد مِنَ الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها, ويزداد شكره لله تعالى عليها, ففي القرآن منه كثير, يُذكِّر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم, كقوله في سورة آل عمران: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} , [آل عمران: ١٦٤], وفي قوله في سورة آل عمران: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} , [آل عمران: ١٠٣], أي إلى الزيادة لشكر نعم الله. وقوله في سورة الأنفال: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} , [لأنفال: ٢٦]. وقوله في سورة القصص: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ

النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة ... } [القصص: ٧٢], إلى آخر الآيات, حيث يذكرهم أن ينظروا إلى ضد ما هم فيه من النعم والخير, ليعرفوا قدر ما هم فيه منها. وهذا الذي أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم, حيث قال: " انظروا إلى من هو أسفل منكم, ولا تنظروا إلى من هو فوقكم, فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم " وقوله تعالى: {فاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} , [الأعراف: ٦٩] , وقوله: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى {٦} وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى {٧} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} , [الضحى: ٦ - ٨] , إلى آخرها.

القاعدة الثانية والأربعون: في أنّ الله ميّز في كتابه بين حقه الخاص, وحق رسوله الخاص, والحق المشترك

الحقوق ثلاثة: حق لله وحده, لا يكون لغيره: وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات. وحق خاص لرسوله صلى الله عليه وسلم: وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به. وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله ومحبة الله ومحبة رسوله. وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن, فأما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له, والترغيب في ذلك, وهذا شيء لا يحصى. وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}, فهذا مشترك {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}, فهذا خاص بالرسول {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفتح: ٩] , فهذا حق لله وحده. وقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} , في آيات كثيرة. وكذلك: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}. وكذلك قوله في سورة التوبة: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوه} [التوبة: ٦٢], وقوله تعالى: {سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ} , فهذا مشترك {إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: ٥٩], وهذا مختص بالله تعالى.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره في كل خصائصه, بل المحبة والإيمان والطاعة لله لابد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع رغبة ورهبة. وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في الله, وطاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى عليهم, فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالاً لأمر الله, وعبودية له. وإنما قيل له حق الرسول, لتعلقه بالرسول, وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله, وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء, والكبير على الصغير والصغير على الكبير وغيرهم, كله حق لله تعالى, فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبداً له, وقياماً بحق ذي الحق, وإحساناً إليه, إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته فما وصل إليهم خير إلا على يديه صلى الله عليه وسلم تسليماً.

القاعدة الثالثة والأربعون: يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها, ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة: قال تعالى في القسم الأول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا} , [النساء: ٩٤] , وفي قراءة: {فتثبتوا} , وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ} , [الحجرات: ٦]. وقد عاب الله المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها, فقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} , [النساء: ٨٣] , وقال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} , [يونس: ٣٩].

ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور, وأخذ الحذر, وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم, وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: كقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْض} [آل عمران: ١٣٣], وقوله: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} [البقرة: ١٤٨], وقوله: {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}

[المؤمنون: ٦١], وقوله: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ١٠], أيْ: السابقون في الدنيا إلى الخيرات: هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد الله عباده إليه, هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات, وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرّات {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ} [المائدة: ٥٠].

القاعدة الرابعة والأربعون: عند ميلان النفوس أو خوف ميلانها إلى ما لا ينبغي يُذكِّرها الله ما يفوتها من الخير وما يحصل لها من الضرر

وهذا في القرآن كثير, وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة, لأن الأمر بالمعروف والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي, حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد أضعافاً مضاعفة على الذي يكرهه الله, وتميل إليه النفس, وما يحصل من المكروه المرتب عليه, كذلك قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [الأنفال: ٢٨], فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة, قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها, وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها {وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٢٨]. وقال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} [النساء: ١٠٩], وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى: ٢٠], وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ {٢٠٥} ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ {٢٠٦} مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]. والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً. فإذا بان للناظر

أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر, والله أعلم.

القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

وهذه القاعدة من أهم القواعد, فإن القرآن يكاد يكون كله داخلاً تحتها فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح, وأثنى على الصالحين والمصلحين في آيات أخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه الله مقصوداً بها غايتها الحميدة, التي قصد الله إليها. فأمر الله بالأعمال الصالحة وأثنى على الصالحين, لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان, وتصلح الدين والدنيا والآخرة, وضدها فساد هذه الأشياء, وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين ما أفسد الناس, والمصلحين بين الناس والتصالح فيما بين المتنازعين, وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير. فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم, كما قال شعيب عليه السلام: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} , [هود: ٨٨] , فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية, فإنه

مصلح, والله يهديه ويرشده ويسدده, وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد, والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين, كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق بين الزوجين, والواجب أن يصلح بالعدل, ويسلك كل طريق توصل إلى الملائمة بين المتنازعين, فإن آثارالصلح بركة وخير وصلاح, حتى إن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر, وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها: الكلية منها والجزئية, والمتعدية والقاصرة, والله أعلم.

القاعدة السادسة والأربعون: ما أمر الله به في كتابه, إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه, وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمر به ليصحح ما وجد منه, ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه.

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها. فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا} [النساء: ٤٧], من القسم الأول. وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} [البقرة: ١٠٤] , من الثاني والثالث, فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة, وكمال الإخلاص فيها, ونهاهم عما يفسدها وينقصها. وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة, ويؤتوا الزكاة, ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك, والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل, والنهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك, وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم, مع أن الله قد هداهم للإسلام!!. جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة. ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل, فافهم هذا الأصل

الجليل النافع, الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزاً, وهو في غاية اليسر والوضوح.

القاعدة السابعة والأربعون: إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها, وذلك الحكم لا يختص بها, بل يشملها ويشمل غيرها, جاء الله بالحكم العام.

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه, وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة: منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم, واستثنى منهم التائبين, فقال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ١٤٦], فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً, بل قال: {وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً}, ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن, ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ} [النساء: ١٥٠] , إلى قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً} [النساء: ١٥١]. لم يقل: وأعتدنا لهم, للحكمة التي ذكرناها, ومثله: {قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا} [الأنعام: ٦٤] , أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها {وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ} [الأنعام: ٦٤].

القاعدة الثامنة والأربعون: متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها, كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء

وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم, وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي, والظواهر والبواطن والجليات والخفيات والماضي والمستقبل, وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال. وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا؛ ليعلم كذا. فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وأما علمه بأعمال العباد وما هم عاملون قبل أن يعملوا, فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء, لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال, وعلى هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْب} [المائدة: ٩٤], وقوله: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة: ١٤٣], وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: ٢٥], وقوله: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت:١١], وقوله: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً} [الكهف: ١٢]. وما أشبه هذه الآيات كلها على هذا الأصل.

القاعدة التاسعة والأربعون: إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم, فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى

وهذا من لطفه, قال تعالى: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: ٣٢], فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع, وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان, وأمرهم أن يسألوه بلسان الحال. ولما سأل موسى عليه السلام ربَّه الرؤية حين سمع كلامه, ومنعه منها, وبلسان المقال سلّاه بما أعطاه من الخير العظيم, فقال: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [لأعراف: ١٤٤], وقوله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: ١٠٦], وقوله تعالى: {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ} [النساء: ١٣٠], وفي هذا المعنى آيات كثيرة.

القاعدة الخمسون: آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها, وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه, فليست آيات, وإنما هي تعنتات وتعجيزات.

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات: وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل, وعلى صدق كل خبر أخبر الله به, وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث: (ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر) , وأما ما آتى الله محمداً صلى الله عليه وسلم من الآيات فهي لا تحد ولا تعد من كثرتها وقوتها ووضوحها . ولله الحمد . فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر. فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل, وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم. فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء, بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية والآية الفلانية إن كنت صادقاً, وإن لم تأت بذلك فإننا لا نصدقك, فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف, ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طالبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم بعدما عرفوا الحق

ورفضوه. وأيضاً فهذا من جهلهم في الحال والمآل. أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق, فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزماً لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا. وهذا قلب للحقائق, وإخبار بغير الذي في قلوبهم, فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جداً, كقولهم: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً} [الإسراء: ٩٠], وقوله: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً} [الأنعام: ١١١], إلى آخرها.

وأيضاً إذا تدبّرت الاقتراحات التي عيّنوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين, وإنما هي ـ لو فرض الإتيان بها ـ شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها, ويصير شهادة, وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم, وحقوقهم وأنه لا حكم إلا حكمه, وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا, فهو متجرئ على الله, متوثب على حرمات الله وأحكامه, فكذلك براهينُ أحكامه لا

يتولاها إلا هو, فمن اقترح شيئاً عنده فقد ادعى مشاركة الرب في حكمه, ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [الأنعام: ٩٣].

القاعدة الحادية والخمسون: كلّ ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء, والنهي عن دعاء غير الله, والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة, ودعاء العبادة

وهذه قاعدة نافعة, فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط, ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء. ويدل على عموم ذلك: قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠], أي أستجب طلبكم, وأتقبل عملكم ثم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠], فسمى ذلك عبادة, وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال, والعابد يطلب من ربه القبول والثواب, ومغفرة ذنوبه بلسان الحال. فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقاً: بأن قصدي من ذلك رضى ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه, ولهذا كانت النية شرطاً لصحة الأعمال وكمالها. وقال تعالى: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} [غافر: ١٤] اي: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم, وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يقيد أحياناً بدعاء الطلب, كقوله: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر: ١٠], وأما قوله: {وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً..} [يونس: ١٢] , الآية, فيدخل فيه دعاء الطلب, فإنه لا يزال ملحاً بلسانه, سائلاً دفع ضرورته, ويدخل فيه دعاء العبادة فإن قلبه في هذه الحال يكون راجياً طامعاً, منقطعاً عن غير الله عالماً أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله, وهذا دعاء عبادة.

وقوله: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} [لأعراف: ٥٥] , يدخل فيه الأمران, فكما أن من كمال دعاء الطلب, كثرة التضرع والإلحاح, وإظهار الفقر والمسكنة, وإخفاء ذلك وإخلاصه, فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكتمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها, وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً} [الأنبياء: ٩٠], فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا, ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّه} [المؤمنون: ١١٧], {فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً} [الجن: ١٨] يشمل

دعاء المسألة ودعاء العبادة. فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك وكافر, فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك وكافر. ومثله: {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس: ١٠٦] , كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [لأعراف: ١٨٠] يشتمل دعاء المسألة ودعاء العبادة. أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه, فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم. ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق, وهكذا.

وأما دعاء العبادة: فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى, فيفهم أولاً معنى ذلك الاسم الكريم, ثم يديم استحضاره بقلبه, حتى يمتلئ قلبه منه. فالأسماء الدالة على العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله تعالى. والأسماء الدالة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعاً في فضل الله ورجاءً لرَوْحِه ورحمته. والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبة ووداً وتألهاً وإنابة لله تعالى. والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال, وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به, ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة, وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية. فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه, فإنه أكرم الأكرمين وأجود الجوادين

القاعدة الثانية والخمسون: إذا وضح الحق وبان, لم يبق للمعارضة العلمية, ولا العملية محل

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية, قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة. وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح. فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحداً واضحاً, وقد تعينت المصلحة, فالمجادلة والمعارضة من باب العبث, والمعارضُ هنا لا يُلتفت إلى اعتراضاته, لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات. قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦] يعني وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل, لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية, فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به, فأي داع للإكراه, وأي موجب له ؟

ونظير هذا قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩] , أيْ هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقِّيَّته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. كقوله: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ

عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [لأنفال: ٤٢], وقال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} , [آل عمران: ١٥٩] , أيْ: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة, ويُطلب فيها وجه المصلحة, فأما أمر قد تعينت مصلحته, وظهر وجوبه فقال فيه: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران: ١٥٩].

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف, في قوله: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ} [لأنفال: ٦] , أيْ فكل من حاول في الحق بعد ما تبين علمه, أو طريق عمله, فإنه غالط شرعاً وعقلاً. وقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: ١١٩] , فلامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه, وذكر السبب لهذا اللوم؛ وهو أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم, فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان, وَبَّخَ ولام المتوقفين عنه بعد البيان, فقال: {فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ {٢٠} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق:٢٠ - ٢١]. ولما بين جلال القرآن وأنه أعلى الكلام, وأوضحه بياناً وأصدقه وأنفعه ثمرة, قال تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: ٦] ولما ذكر عظم نعمه الظاهرة والباطنة, قال تعالى: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} [لنجم: ٥٥] {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}

[الرحمن: ١٣] وقال تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ} [يونس: ٣٢] وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن, حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام وإزالة الشبه كلها انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة, والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً.

القاعدة الثالثة والخمسون: من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة, ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه, وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً.

وهذه القاعدة تبين من لطف الله وإحسانه بالعباد, وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار تعريفاته ونفحة عظيمة من نفحاته, وأنه أرحم الراحمين, قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦] فبين تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها على العباد وإن شقت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال, لكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض وإحسان صرف من الله على عباده, حيث قيض لهم هذه العبادة التي توصلهم إلى منازل لولاها لم يكونوا واصليها, قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤] وقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {١٥٥} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٥/١٥٦] وقال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ} [الزمر: ١٠] فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات, وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها, وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها, كان الأجر أعظم والثواب أكثر.

قال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَام إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب} , [لأنفال: ١١-١٢] فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسر بها العبادة, مزيلة محصلة لثمراتها. وقال تعالى: {إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ {٣٢} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٢-٦٤] فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أنه يسر لهم العبادات وهون عليهم مشقة القربات, وأن ييسرهم للخير, ويجنبهم الشر بأيسر عمل. وقال: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} {الليل: ٥-٧} أيْ لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} , [النحل: ٩٧]. ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوقُ حلاوة الطاعات, واستعذاب المشقات في رضا الله تعالى, فهذه الأحوال

كلها خير للمؤمن, إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ اللهَ وشكره, وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها, واحتسب الخير في عنائه وجهاده ورجا عظيم الثواب, وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة, والله أعلم.

القاعدة الرابعة والخمسون: كثيراً ما ينفي الله الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه, وإن كانت صورته موجودة

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى, من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف بها ربه ويقوم بحقه, فهذا المقصود منها, وبوجود ما خلقت له تكمل ويكمل صاحبها. وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها, فإنها حجة الله على عباده, ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا, فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له. ولهذا كثيراً ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للأباء والسادة والرؤساء, المنسلخين من آيات الله, وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثياباً وألقاباً علمية, فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين. كقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧١] وقال: {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} , [الأعراف: ١٧٩] فأخبر أن صورها موجودة ولكن

فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال: {لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦] وقال: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } [النمل: ٨٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً. وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً} [النساء: ١٥٠-١٥١] , فأثبت لهم الكفر من كل وجه؛ لأن دعواهم الإيمانَ بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان؛ لأن ثمرة إيمانهم مفقودة حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم, وغيره ممن كفروا به وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به, وكذلك قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} , [البقرة:٨] ولما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان وهو المثمر لكل خير, وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم, نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته. ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفروض على الإيمان. كقوله: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٢٢] {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣] وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [لأنفال: ٤١] إلى

قوله: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ} [لأنفال: ٤١] وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} [الأنفال: ٢-٤], وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات, واجتناب الشرك والمحرمات فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق, وهذا قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً}.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به, والانقياد لكتب الله ورسله, قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ} , [البقرة: ١٠١] ونظير ذلك: قول موسى عليه السلام, لما قال له بنو إسرائيل: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة: ٦٧] فكما أن فقد العلم جهل ففقد العمل به جهل قبيح.

القاعدة الخامسة والخمسون: يُكتب للعبد عمله الذي باشره, ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله, ويكتب له ما نشأ عن عمله.

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن:

أما الأعمال التي باشرها العبد فأكثر من أن تحصى النصوص الدالة عليها, كقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [المائدة: ١٠٥], {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة: ٢٨٦], {لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} [يونس: ٤١] ونحو ذلك.

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها وعجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [النساء: ١٠٠] , فهذا خرج قاصداً الهجرة, وأدركه الأجل قبل تكميل عمله, فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره, فكل من شرع في عمل من أعمال الخير, ثم عجز عن إتمامه بموت أو عجز بدني أو عجز مالي أو مانع داخلي أو خارجي, وكان من نيته ـ لولا المانع ـ إكمالُه فقد وقع أجره على الله. فإنما الأعمال بالنيات (١) , وقال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} , [العنكبوت: ٦٩] , فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه, سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} [يّس: ١٢], أيْ: باشروا عمله {وَآَثَارَهُمْ} التي ترتبت على أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة, وقال في المجاهدين: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠] , فكل هذه الأمور من آثار عملهم ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: {وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٢١].

والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان, كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية, فيقتدي به غيره في هذا الخير, فإن ذلك من آثار عمله وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط, فيعطيه الله أولاداً صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده, كمن علم غيره علماً نافعاً فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال, ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك, فإنه من آثار عمله. وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس, أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة, فيحصل مراده, فإن هذا

من آثار عمله, وكذلك من يزرع زرعاً أو يغرس غرساً أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم, وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره, فما ترتب من نفع على هذا العمل فإنه من آثار عمله, وإن كان يأخذ على عمله أجراً وعوضاً, فإن الله يدخل بالسهم الراحد الجنة ثلاثة: صانعه وراميه والممدّ به.

القاعدة السادسة والخمسون: يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم, وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام بها, ويوفر وقته عليها, لتقوم مصالحهم, وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية الحكيمة, فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها, ولا يمكن تفويتها, فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه, قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} [التوبة: ١٢٢], فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفة أخرى, وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت.

وقال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١٠٤] وقال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢], وقال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦], وقال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨]. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة, وبقيام كل طائفة

منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها, لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية, ويكون سائراً في جميع أعماله إليها, فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلحت أمورهم وانجابت عنهم شرور كثيرة, فالله المستعان.

القاعدة السابعة والخمسون: في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية.

قد دعا الله عباده إلى التفكير في هذه المخلوقات في آيات كثيرة وأثنى على المتفكرين فيها, وأخبر أن فيها آياتٍ وعِبَراً نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا, فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون. وحاصل ذلك على وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم, عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد, ولا أوجد نفسه . هذا أمر بديهي . فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء, كامل القدرة عظيم السلطان واسع العلم, وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاس} [غافر: ٥٧], وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه, وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصداً وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرى. وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى, عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة, عظيم الفضل والبر والإحسان, والجود والامتنان,

وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات, فإن ذلك دال على إرادة الله ونفوذ مشيئته ونعرف بذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو وأنه المحبوب المحمود, ذو الجلال والإكرام, الذي لا تنبغي الرهبة إلا إليه, ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها. ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا, وأنها مسخرة لنا, وأن عناصرها ومواردها وأرواحها قد مكن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها, عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة, من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها, فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه من استخراج ما يصلح أحوالنا منها, بحسب القدرة, ولم نخلد إلى الكسل والبطالة, أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة, بحجة أن الكفار سبقونا إليها وفاقونا فيها, فإنها كلها ـ كما نبه الله ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا, وأن يُعلم الإنسان ما لم يعلم.

القاعدة الثامنة والخمسون: إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال.

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن. منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم, وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها, فحينئذ نبأهم آدم بها, فخضعوا لعلمه, وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير رأى المِلِكَ تلك الرؤيا, وعرضها على كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها, ثم بعد ذلك عَبَّرَها يوسف ذلك التعبير العجيب, الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسى, وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه, فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة, واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقى السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم, وأظهروا للناس من عجائب السحر {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [لأعراف: ١١٦], فحينئذ ألقى موسى عصاه, فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم, فظهرت هذه الآية الكبرى, وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي صلى الله عليه وسلم, وتمالأ عليه أعداؤه, ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به, نصره الله ذلك النصر العجيب, فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حَرْدُه . الغضب والغيظ, القوي مكره, الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات, وتخلصه وانفراج الأمر له, من أعظم أنواع النصر. كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض, فقال: {إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} , [التوبة: ٤٠] وقريب من هذا نصره له يوم حنين, حيث أعجبت المسلمين كثرتهم, فلم تغن عنهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين وثبت الله نبيه صلى الله عليه وسلم فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة, فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه.

وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه, وأنه إذا اشتد البأس, وكاد أن يستولي على النفوس اليأس, أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد, بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين, فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله, ما يملأ القلوب حمداً وشكراً وثناء على الباري تعالى.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها, كقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ} [الأنعام: ٤٦], وقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} الآيات [القصص: ٧١]. وتَلمَح على هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه: حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف, وقالوا: {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ} [يوسف: ٨٨] الآية ثم بعد قليل قال: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩] في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين, والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم, لئلا تسترسل النفوس في الجزع, فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب, وهان عليها حملها, كما ذكّر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدر, فقال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥] وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: ١٢٣] ويبشر الله عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب, ليكون هذا الرجاء مخففاً لما نزل به من البلاء, قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٥], وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا ذكرها رجاء الفرج وهب على قلبه نسيم الرجاء, ولهذا قال: {يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ} [يوسف: ٨٧] وكذلك قوله لأم موسى في سورة القصص: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص:٧].

وأعظم من هذا كله: أن وعد الله لرسله بالنصر وبتمام الأمر وحسن العاقبة يهون عليهم به المشقات ويسهل عليهم الكريهات, فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة, وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال, أو يدور في الخيال.

القاعدة التاسعة والخمسون: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]

ما أعظمَ هذه القاعدةَ, وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصاً صريحاً على عموم ذلك, وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم, في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها, ويأمر بها ويحث عليها. معنى {أَقْوَمُ} أيْ وأصلح وأكمل وأعظم قياماً وصلاحاً.

فأما العقائد فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها لصلاح القلوب وحياتها وكمالها, فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها, وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيماً له وتألهاً وتعبداً وإنابة, وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل, من الصبر والحلم والعفو والأدب وحسن الخلق وجميع مكارم الأخلاق, ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي قيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية, وفي دفع المفاسد, ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال. حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه, فلا يمكن أنه وجد أو يوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها, إلا القرآن يرشد إليها نصاً وظاهراً, أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية, وتفصيل هذه القاعدة لا يمكن استيفاؤه.

وبالجملة فالتفاصيل الواردة في الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي والإخبارات كلها تفصيل لهذا الأصل المحيط. وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن. والله ولي الإحسان.

القاعدة الستون: من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليها في كتابه: أن القصص المبسوطة يُجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها, والأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة, فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير, وتتقرر فيه المطالب المهمة, وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة, ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال, يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها, فإن الصورة تشوق إلى التفصيل. وقد ورد هذا في القرآن في مَواضع:

منها: في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: في قوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف: ٣] ثم أخذ في تفصيلها: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ} [يوسف: ٧] ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف: قال في تصويرها الإجمالي: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً {٩} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً {١٠} فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً {١١} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ

الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً} [الكهف: ٩-١٢] فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها, ثم بسطها بقوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقّ} [الكهف: ١٣] الآيات إلى آخر القصة.

وكذلك قصة موسى: قال: {نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {القصص: ٣] إلى قوله: {يَحْذَرُونَ} [القصص: ٦] ثم أتى بعد ذلك بالتفصيل.

وقال في قصة آدم: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} [طه: ١١٥] ثم أتى بعد ذلك بالقصة.

وأما التنقل في التقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه, فكثير:

منه: قوله تعالى في الإنكار على من جعل مع الله إلهاً آخر, وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية: أن هؤلاء الأولياء والآلهةأبناء الله؛ لأنهم النور الذي انبثق منه تجسدوا بشراً ثم عادوا إلى النورانية, فيقول: {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبَائِهِمْ} [الكهف: ٥] فأبان أن قولهم هذا بلا علم ومن المعلوم: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة. ثم صرح بقبحه قولُه: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف: ٥] ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل: {إِن يَقُولُونَ إِلاّ كَذِباً} [الكهف: ٥].

وقال في حق المنكرين للعبث: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} [النمل: ٦٦] أيْ علمهم فيها علم ضعيف سافل إلى أحط الدركات, لا يعتمد عليه إلا سفيه ثم انتقل إلى ما هو ابلغ منه, فقال: {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ} [النمل: ٦٦] والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذبه, وزعم أنه في ضلال مبين: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ} [الأعراف: ٦١] ثم لما نفى الضلالة من كل وجه أثبت الهدى الكامل له, فقال: {لَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ} [الأعراف: ٦١] ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه, وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه, فقال: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٦١] وكذلك هود عليه الصلاة والسلام.

وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى {١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} [النجم: ١-٢] , فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه ثم قال: {إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٤] الآيات. وهو في القرآن كثير جداً, كانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا إلى مريم, وأمر القبلة بعد تعظيمه للبيت, وغيرها.

القاعدة الحادية والستون: معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه, حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص

وذلك أن الله رتب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبط تلك المدة وإحصائها وتحديدها. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة: ١٨٩], فقوله: {مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها, وخص بالذكر الحج لكثرة مل يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة. وكذلك مواقيت للعدد والديون والإجارات وغيرها, قال تعالى لما ذكر العدة: {وَأَحْصُوا العِدَّةَ} [الطلاق: ١] وقوله في الصيام: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: ١٨٤], وقال تعالى: {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ} [البقرة: ٢٢٦], {إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} [النساء: ١٠٣], وقال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً} [الكهف: ١٢]. وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم, فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم, فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة, مصلحة في الدين والدنيا, كان مما حث وأرشد إليه القرآن. ويقارب هذا المعنى: قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [البقرة: ٢٥٩] الآية, وقوله: {وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [الإسراء: ١٢] , ونحوها من الآيات.

القاعدة الثانية والستون: الصبر أكبر عون على كل الأمور, والإحاطة بالشيء هو الذي يعين على الصبر

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحا وظاهرا في أماكن كثيرة: قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ} [البقرة: ٤٥] أيْ: استعينوا على جميع المطالب, وفي جميع شئونكم بالصبر, فبالصبر يسهل على العبد القيام بالطاعات, وأداء حقوق الله وحقوق عباده, وبالصبر يسهل عليه ترك ماتهواه نفسه من المحرمات, فينهاها عن هواها حذر شقاها, وطلباً لرضى مولاها, وبالصبر تخف عليه الكريهات. ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها, ولا يتم وجوده إلا بها: وهي معرفة الشيء المصبور عليه, ومعرفة ما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات. فمتى عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان, وصلاح القلوب واستكمال الفضائل, وما تثمره من الخيرات والكرامات, وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة, وعلم ما في أقدار الله من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور. إذا عرف ذلك هان عليه الصبر على جميع ذلك.

وبهذا فضل العلم, وأنه أصل الفضائل كلها ولهذا يذكر الله تعالى كثيراً في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم, وعدم

إحاطتهم التامة بها. وقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] وقال: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} [النساء: ١٧] , ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء, وإنما قصر عملهم وخبرتهم, بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرّات وزوال المانع.

وقال تعالى مبينا أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر, فقال عن الخضر لما قال له موسى وطلب منه أن يتعين ليتعلم مما علمه الله قال: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً {٦٦} قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً {٦٧} وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً} [الكهف: ٦٦-٦٨], فعدم إحاطته به خبرا يمتنع معه الصبر, ولو تجلد ما تجلد فلابد أن يُعال صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: ٣٩], فبين أن الأعداء المكذبين إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه, وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه, لألجأهم إلى التصديق والإذعان, فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه, ولم يعرفوه حق معرفته, فقال في المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [النمل: ١٤] وقال

الله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣] والمقصود أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر, وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور, ومعرفة حقائقها وفضائلها ورذائلها. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والستون: يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان: وإيمانه الصحيح وعمله الصالح, وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة, أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا, أو بالرياسات, كل ذلك من طرق المنحرفين.

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذا الأصل وقد قال تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا} [سبأ: ٣٧] , وقال تعالى: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ {٨٩} إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨-٨٩]. وقد أكثر الله هذا المعنى في عدة مواضع.

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين فقال عن اليهود والنصارى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ١١١] , ثم ذكر البرهان الذي من أقامه وأتى به فهو المستحق للجنة فقال: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ١١٢] وقال: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} [النساء: ١٢٣], {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ

مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} [مريم: ٧٣], {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١].

ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم, بتفوقهم في الأمور الدنيوية, والرياسات ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور, وهذا من أكبر مواضع الفتن.

القاعدة الرابعة والستون: الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق وعلى الأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول.

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن, فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص, ومن عرف حكمة تعالى الله في ورودها على الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبهة قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين والحق الصريح, وتقابل الحق والباطل, ووقعت الخصومة بينهما, فغلب الحقُ الباطل, ودمغه فزهق الباطل وثبت الحقُ, حصلت العاقبة الحسنة, وزيادة الإيمان واليقين, فكان في ذلك التقدير حكمٌ بالغة, وأيادي سابغة, ولنمثّل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيماناً ويقيناً, وتصديقاً بوعد الله ووعيده, وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرسل, من أنهم قد بلغوا الذروة فيه, وأنهم معصومون من ضده, ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة ـ المنافية حساً لما علم يقينا ـ ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر, ويقولون: {مَتَى نَصْرُ

اللَّهِ} [البقرة: ٢١٤] وقد يخطر في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب, ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤] فعندئذ يصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير, لا يحصل بدون هذه الحالة, ولهذا قال: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: ١١٠] فلهذا الوارد الذي لا قرار له, وعندما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى, لا ينكر ويطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

ومن هذا الباب بل من صريحه قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: ٥٢] , أيْ يلقي من الشبه ما يعارض اليقين. ثم ذكر الحكم المترتبة على الإلقاء ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان, ويحكم الله آياته, والله عليم حكيم, فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء, لهذه الحكم التي ذكرها, فمن أنكر وقوع ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون, وظن أن هذا ينافي العصمة, فقد غلط أكبر غلط, ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولاً يخالف فيه الواقع, وخالف نص الآيات الكريمات.

ومن هذا -على أحد قولي المفسرين- قوله تعالى عن يونس: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ}, [الأنبياء: ٨٧] , وأنه ظنٌ عرضَ في الحال ثم زال, نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد على قلبه, ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها ولهذا قال صلى الله عليه وسلم عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم, مبشراً لهم: (الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة). ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب, وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة, لفعل بعض المعاصي التي تنافي الواجب ثم يأتي برهان الإيمان, وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة, فيدفع هذا العارض. ومن هذا: قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ} [يوسف: ٢٤] وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله وخوفه وخشيته ورجائه, دفع عنه هذا الهم وموجبه واضمحل, وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه. ولهذا فاز بمرتبة الصديقية؛ لقوة إخلاصه ويقظة إيمانه بآيات ربه, وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن, فقال: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [يوسف: ٣٣]. وكان كل من يتشبه به ويقف أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (رجل دعته امرأة

ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١], يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته, فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان وواجباته, من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا, فاندفعت الشبهات والشهوات فرجع الشيطان خاسئاً وهو حسير. ولعل من هذا: قول لوط عليه الصلاة والسلام: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: ٨٠] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (رحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد) يعني: وهو الله القوي العزيز, لكن غلب على لوط عليه السلام في تلك الحالة الحرجة وملاحظة الأسباب العادية, فقال ما قال, مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

القاعدة الخامسة والستون: قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى محرّم أو ترك الواجب

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة, وهي من قاعدة: "الوسائل لها أحكام المقاصد".

فمنها: قوله تعالى: {وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨] وقوله: {وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} [النور: ٣١] وقوله: {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [الأحزاب: ٣٢] وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [الجمعة: ٩]. وقد ورد بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير, فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه, فإن توسل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأموراً بها. وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب, كانت محرمة منهياً عنها وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية, والله الموفق.

القاعدة السادسة والستون: من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات.

وهذه قاعدة جليلة فإن أكثر الناس يُقْصر نطره على نفس اللفظ الدال على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت حضور ذلك الفعل والقول, والفطن اللبيب ينظر إلى الأمرين ويعرف أن هذا لازم لهذا, أو هذا ملزم لهذا. وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل, ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر, فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم: {يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً} [الفرقان: ٦٣], ذلك صادرعن وقارهم وسكينتهم وخشوعهم وعن حلمهم الواسع وخلقهم الكامل وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين.

ومثل قوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [النمل: ١٧], يدل على ذلك حسن إدارة الملْك وكمال السياسة وحسن النظام. وقوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: ٥٥], يدل على حسن الخلق ونزاهة النفس عن الخلاق الرذيلة وعلى سعة عقولهم وقوة حلمهم واحتمالهم ومثل الأخبار عن أهل الجاهلية في تقتيل أولادهم خشية الفقر أو

من الإملاق يدل على شدة هلعهم وسوء ظنونهم بربهم وعدم ثقتهم بكفايته, وكذلك قوله عن أعداء رسول الله: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص: ٥٧], يدل على ظنونهم بالله وأن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته, وأمثلة هذا الأصل واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.

القاعدة السابعة والستون: يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق عند ورود الشبهات والتوهمات.

وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: "أن الموهوم لا يدفع المعلوم, وأن المجهول لا يعارض المتيقن". ونحوها من العبارات. وقد أرشد الله إليها في مواضع كثيرة لما أخبر عن الراسخين في العلم, وأن طريقتهم في المتشبهات: أنهم يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧] فالأمور المحكمة المعلومة, يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون. وقال تعالى في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: ١٢] فأمرهم بالرجوع إلى ما عُلم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات, وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم, ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه, ويقدح فيه. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً} [الأحزاب: ٦٩], فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله من آذاه لأنه لا يكون وجيها عند ربه حتى يسلم من جميع المنقصات ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم. فيحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك من آذى موسى مع وجاهته, فيؤذوا أعظم الرسل جاهاً عند الله, وأرفعهم مقاماً ودرجة, وأرأفهم

بالمؤمنين وأكثرهم إحساناً إلى الخلق. وقال تعالى: {فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣٢] {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقّ} [سبأ: ٦].

القاعدة الثامنة والستون: ذكر الأوصاف المتقابلات يغنى عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلوماً

وهذه القاعدة في القرآن كثير يذكرها في المقامات المهمة كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك, وبين إلهية الحق وإلهية من سواه, ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء, قال تعالى: {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٩] {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ {٥٩} أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [النمل: ٥٩-٦٠], والآيات التي بعدها: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} [الزمر: ٢٩], {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} [هود: ٢٤], وقال تعالى: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: ١٤٠], {قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: ٥٩], {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩], وقال قبلها: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: ٩], فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة, لعلمه من المقام, فقوله: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ}, إلخ يعنى كمن ليس كذلك, والآيات في هذا المعنى كثيرة, وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب كقوله: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى

أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك: ٢٢], ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي وما يدعو إليه وأعظم الناس معارضة له قال: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٢٤], {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ {٥} , بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} [القلم: ٥-٦], {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦], {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩], وذلك أنه إذا ميزت الأشياء تمييزاً تاماً عرفت مراتبها في الخير والشر والكمال والنقص صار التصريح بعد ذلك أفضل لا معنى له, والله أعلم.

القاعدة التاسعة والستون: من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة:

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله, فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا, والعز والتمكين. وإبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه وأباه, وما يدعون من دون الله, وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين. وسليمان عليه السلام لما ألهته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها عوضه الله: {الرِّيْحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ} [ص: ٣٦], {وَالشَّيَاطِيْنَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ} [ص: ٣٧].

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله, نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سبباً لهداية الضالين. ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين. ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا.

القاعدة السبعون: القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين, ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه.

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح, وفي طريقته في محاجة أهل الباطل, وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل. ويُعرّف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده وأخلاقه وآدابه وشرائعه. ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات, فنقول: أهل الشر والفساد نوعان:

أحدهما المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها, ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين على فساد قولهم شيء كثير, لا يأتي مبطل يقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي, ففيه الرد على جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة والمنسوخة من اليهود والنصارى والأميين {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} [الفرقان: ٣٣], يذكر الله حجج هؤلاء ويرفضها ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف, وتفصيل هذا بالجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني: من المقومين للأديان والدنيا والسياسات والحقوق الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم ويقمع شرهم, وإنما عندهم من الأصول والعقائد والأخلاق والسياسات ما يمكن امثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد, ولكن ـ ولله الحمد ـ القرآن العظيم والدين القويم قد تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردهم على أعقابهم منهزمين. فما فيه من العدل ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم وما فيه من إيجاب الزكاة والإلزام بها, ودفع حاجات الفقراء والمساكين ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية ووجوب الملاك والحقوق, كل هذا أعظم صدق وأحسن حكم للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين, وكذلك ما حَضَّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية والأخلاق السامية والأخوة الدينية والرابطة الإسلامية يمنع من تغلل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق وانحلال الآداب وتحلل الروابط النافعة والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون, فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية والتسلط على العباد بالقهر والاستعباد والطمع والجشع فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج المخرب المدمر ما مر عليه, فما معهم من سلاح يقاوم سلاحهم, ولا قوة تجابه قوتهم,

لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية والصلاح والإصلاح والعدل ودفع الظلم والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب, بل تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق, فإذا جاء هؤلاء المفسدون بالتعطيل المحصن والإنكار والصرف أبدى القرآن من الحجج والبراهين على وجود الله وصدقه وصدق من جاء به ما تصدع له الجبال وتخضع له فحول الرجال, وإذا تسرب هؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الآداب الجميلة ووجدوا مسلكاً في هذا الطريق يعينهم على تنفيذ باطلهم جاءهم هذا القرآن بالحث على الأخلاق العالية والأعمال الصالحة والأداب الجميلة التي لا تدع للشر على صاحبه سبيلاً, وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة واستعبادهم, للعباد واستبدادهم بالأملاك والأموال ولم يجد هؤلاء العظيم بعدله وقسطه وإيجاب الحقوق المتنوعة الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات بصدهم ومقاومتهم وإبطال كل ما به يصولون ويجولون ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم ونظامه الحكيم وهديه القويم وحثه على سلوك الصراط المستقيم ونوره الساطع وحججه القواطع لم يبق في وجهه باطل إلا محقه ولا شر إلا سحقه ولا بقى من قصده الحق والصواب إلا اختاره,

واعتنقه ولا تأمله صاحب عقل إلا صدع له, فهو الحصن الحصين من جميع الشرور, وهو القامع لكل من قاومه في كل الأمور.

القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب, وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات, وأنها وإن تنوعت ألفاظها, واختلفت أساليبها وتفاصيلها, فإنها ترجع إلى أصل واحد, وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيراً منها من الألفاظ الجوامع, وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم, واختصر له الكلام اختصاراً, ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج فمنها: قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [فصلت: ٤٦], {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} {يونس: ٢٦}, {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠], {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ١٠], {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠] الآية, {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢], {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧], {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ} [الزلزلة:

٧], {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [الزلزلة:٨] {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً} [المزمل: ٢٠] {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠], {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨], {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩], {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا} [النساء: ٤٠], {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: ١٢٨], {إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٨١], {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥], {يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩], {فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً} [الجن: ١٨], {تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} [البقرة:٢٢], {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: ٣], {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦], {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣], {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} [البقرة: ٢٣٧], {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} [الأعراف: ٨٥], {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [هود:١١٢] {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود: ١١٥], {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤], {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤], {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ٨٠], {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد: ٢١] الآيات, {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠], {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا

بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: ١٢٦], {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤], {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩], {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء: ١٥], {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [التوبة:٩١], {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى:٤٠], {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً} [الكهف: ٤٦], {وَخَيْرٌ مَرَدّاً} [مريم: ٧٦], {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥], {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨], {وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} [الأحزاب: ٤], {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} [الفرقان: ٣٣], {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١] {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشر: ٧], {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} [الأحزاب: ٥٣], {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا [الأحزاب: ٥٨] الآية, {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [لأنفال: ٦٠].

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة, وأصل كلي يحتوي على معان كثيرة. وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير, وهي متيسرة على حافظ القرآن, المعتني بمعرفة معانية ولله الحمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات, وقد يسر الله تعالى علينا ما من بجمعه, فجاء ـ ولله الحمد ـ على اختصاره ووجازته ووضوحه كتابا يسر الناظرين ويعين على فهم كلام رب العالمين, ويبدي لأهل البصائر والعلم من المعاقل والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يجده مجموعا في محل واحد, ومخبر الكتاب يغني عن وصفه. وأسأله تعالى أن يجعله خالصا لوجه الكريم, مقربا لديه في جنات النعيم, وأن ينفع به مؤلفه وقارئه, والناظر فيه وجميع المسلمين, بمنه وكرمه وجوده وإحسانه وهو خير الراحمين, وصلى اله على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين, وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر أبو عبد الله السعدي. وقد تم ذلك في {٦ شوال سنة ١٣٦٥ هـ}

والحمد لله أولا وآخرا, وظاهرا وباطنا.

فهرس

مقدمة 1

القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير..3

القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب...........................5

القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه 7

القاعدة الرابعة: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم 11

القاعدة الخامسة: المقرر أن المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع 13

القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده 16

القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ..18

القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد.....................22

القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية 24

القاعدة العاشرة: في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم......27

القاعدة الحادية عشرة: مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام 29

القاعدة الثانية عشرة: الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض: .35

القاعدة الثالثة عشرة: طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة 41

القاعدة الرابعة عشرة: حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له 43

القاعدة الخامسة عشرة: جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان 47

القاعدة السادسة عشرة: حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد..49

القاعدة السابعة عشرة: بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له, وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى, ودل ما قرن معه على باقيه 50

القاعدة الثامنة عشرة: إطلاق الهداية والإضلال وتقييدها 53

القاعدة التاسعة عشرة: الأسماء الحسنى في ختم الآيات 57

القاعدة العشرون: القرآن كله محكم باعتبار, وكله متشابه باعتبار, وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.................................66

القاعدة الحادية والعشرون: القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد...............................69

القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد أمثلة القرآن..................72

القاعدة الثالثة والعشرون: إرشادات القرآن على نوعين..................79

القاعدة الرابعة والعشرون: التوسط والاعتدال وذم الغلو..................82

القاعدة الخامسة والعشرون: حدود الله قد أمر بحفظها ونهى عن تعديها وقربانها 85

القاعدة السادسة والعشرون: الأحكام في الآيات المقيدة..................87

القاعدة السابعة والعشرون: المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها...93

القاعدة الثامنة والعشرون: في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن 96

القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن 99

القاعدة الثلاثون: أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم, ... 103

القاعدة الحادية والثلاثون: ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة .. 104

القاعدة الثانية والثلاثون: الأمر بالشيء نهي عن ضده 106

القاعدة الثالثة والثلاثون: المرض في القرآن –مرض القلوب– نوعان: مرض شبهات وشكوك, ومرض شهوات ومحرمات 108

القاعدة الرابعة والثلاثون: دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره, وحُرِم الأمرَ الأول................ 110

القاعدة الخامسة والثلاثون: تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين 112

القاعدة السادسة والثلاثون: مقابلة المعتدي بمثل عدوانه................ 114

القاعدة السابعة والثلاثون: اعتبار المقاصد في ترتيب الأحكام............ 116

القاعدة الثامنة والثلاثون: قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه, ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجاباً أو استحباباً 118

القاعدة التاسعة والثلاثون: في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية 120

القاعدة الأربعون: في دلالة القرآن على أصول الطب.................... 125

القاعدة الحادية والأربعون: قصر النظر على الحالة الحاضرة............... 127

القاعدة الثانية والأربعون: الحقوق لله ولرسوله 131

القاعدة الثالثة والأربعون: الأمر بالتثبت 133

القاعدة الرابعة والأربعون: علاج ميل النفوس إلى ما لا ينبغي 135

القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح 137

القاعدة السادسة والأربعون: ما أمر الله به في كتابه, إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه, وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمر به ليصحح ما وجد منه, ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه. 139

القاعدة السابعة والأربعون: السياق الخاص يراد به العام إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها, بل يشملها ويشمل غيرها, جاء الله بالحكم العام....................................... 141

القاعدة الثامنة والأربعون: متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها, كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء 142

القاعدة التاسعة والأربعون: إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم, فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى 143

القاعدة الخمسون: آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها.......... 144

القاعدة الحادية والخمسون: كلّما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء, والنهي عن دعاء غير الله, والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة, ودعاء العبادة ... 147

القاعدة الثانية والخمسون: إذا وضح الحق وبان, لم يبق للمعارضة العلمية, ولا العملية محل 151

القاعدة الثالثة والخمسون: من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة, ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه, وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً. 154

القاعدة الرابعة والخمسون: كثيراً ما ينفي الله الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه, وإن كانت صورته موجودة.. 157

القاعدة الخامسة والخمسون: يُكتب للعبد عمله الذي باشره, ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهراً عنه, ويكتب له ما نشأ عن عمله 160

القاعدة السادسة والخمسون: تحال المصالح على قدر الوسع والطاقة 163

القاعدة السابعة والخمسون: في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية 165

القاعدة الثامنة والخمسون: الكمال إنما يظهر إذا قُرن بضده 167

القاعدة التاسعة والخمسون: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} 171

القاعدة الستون: أنواع التعليم القصصي في القرآن 173

القاعدة الحادية والستون: معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه, حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص 176

القاعدة الثانية والستون: الصبر أكبر عون على جميع الأمور, والإحاطة بالشيء علما وخبرا هو الذي يعين على الصبر 178

القاعدة الثالثة والستون: العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال 181

القاعدة الرابعة والستون: الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَرِدُ على الحق وعلى الأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول 183

القاعدة الخامسة والستون: قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى ترك الواجب, أو فعل محرم 187

القاعدة السادسة والستون: من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات 188

القاعدة السابعة والستون: يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق, للخروج من الشبهات والتوهمات 190

القاعدة الثامنة والستون: ذكر الأوصاف المتقابلات يغنى عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلوماً... 192

القاعدة التاسعة والستون: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه............ 194

القاعدة السبعون: القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه...................... 195

القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني 199

" مقدمة في أصول التفسير "

لشيخ الإسلام ابن تيمية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن برحمتك

الحمد لله, نستعينه ونستغفره, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا, ومن سيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضل له, ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما.

أما بعد: فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية, تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه, والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل, والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل.

فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغَثِّ والسمين, والباطل الواضح والحق المبين.

والعلم أما نقل مصدق عن معصوم, وأما قول عليه دليل معلوم, وما سوى هذا فإما مزيف مردود, وأما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود.

وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين, والذكر الحكيم, والصراط المستقيم, الذي لا تزيغ به الأهواء, ولا تلتبس به الألسن, ولا يَخْلَق عن كثرة الترديد, ولا تنقضي عجائبه.

ولا يشبع منه العلماء, من قال به صدق, ومن عمل به أجر, ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم, ومن تركه من جبار قصمه الله, ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله.

قال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

وقال تعالى: {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٥ - ١٦].

وقال تعالى: {الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [إبراهيم: ١, ٢].

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ} [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

وقد كتبت هذه المقدمة مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء الفؤاد, والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

فصل [في أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معاني القرآن]

يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه, فقوله تعالى: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان, وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل, قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرا البقرة وأل عمران جَلَّ في أعيننا.

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين, قيل: ثماني سنين, ذكره مالك. وذلك أن الله تعالى قال: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩], وقال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [محمد: ٢٤], وقال: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [المؤمنون: ٦٨], وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن, وكذلك قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢] وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه, فالقرآن أولى بذلك.

وأيضا, فالعادة تمنع أن يقرآ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه, فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم, وبه نجاتهم وسعادتهم, وقيام دينهم ودنياهم؟

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا, وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة, فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم, وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر.

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة, كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها؛ ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به؛ ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم, وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة, كما تلقوا عنهم علم السنة, وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال, كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال.

فصل [في اختلاف السلف في التفسير وأنه اختلاف تنوّع]

الخلاف بين السلف في التفسير قليل, وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير, وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد, وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه, تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة.

كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند, وذلك مثل أسماء الله الحسنى, وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم وأسماء القرآن, فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد.

فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضادا لدعائه باسم آخر, بل الأمر كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠] وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة, وعلى الصفة التي تضمنها الاسم, كالعليم يدل على الذات والعلم, والقدير يدل على الذات والقدرة, والرحيم يدل على الذات والرحمة.

ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر, فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون: لا يقال: هو حي, ولا ليس بحي, بل ينفون عنه النقيضين؛ فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسما هو علم محض كالمضمرات, وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات, فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقا لغلاة الباطنية في ذلك, وليس هذا موضع بسط ذلك.

وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته, وعلى ما في الاسم من صفاته, ويدل أيضا على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم.

وكذلك أسماء النبي صلى الله عليه وسلم, مثل محمد, وأحمد, والماحي, والحاشر, والعاقب. وكذلك أسماء القرآن: مثل القرآن, والفرقان, والهدى, والشفاء, والبيان, والكتاب, وأمثال ذلك.

فإن كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم, وقد يكون الاسم علما وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} [طه: ١٢٤] ما ذكره؟ فيقال له: هو القرآن مثلا, أو هو ما أنزله من الكتب. فإن الذكر مصدر, والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول. فإذا قيل ذكر الله بالمعني الثاني كان ما

يذكر به مثل قول العبد: سبحان الله, والحمد لله, ولا إله إلا الله, والله أكبر. وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه, وهذا هو المراد في قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} ؛ لأنه قال قبل ذلك: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: ١٢٣] وهَداه هو ما أنزله من الذكر, وقال بعد ذلك: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا} [طه: ١٢٥ - ١٢٦] والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل, أو هو ذكر العبد له فسواء قيل: ذكري كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك, كان المسمى واحدًا.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به, فلابد من قدر زائد على تعيين المسمى, مثل أن يسأل عن القدوس السلام المؤمن, وقد علم أنه الله, لكن مراده ما معنى كونه قدوسا سلاما مؤمنا ونحو ذلك.

إذا عُرف هذا, فالسلف كثيرا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه, وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر, كمن يقول: أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب.

والقدوس هو الغفور, والرحيم, أي أن المسمى واحد, لا أن هذه الصفة هي هذه.

ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس, مثال ذلك: تفسيرهم للصراط المستقيم, فقال بعضهم: هو القرآن, أي أتباعه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث علي الذي رواه الترمذي, ورواه أبو نعيم من طرق متعددة: " هو حبل الله المتين, وهو الذكر الحكيم, وهو الصراط المستقيم ".

وقال بعضهم: هو الإسلام؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث النواس ابن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما, وعلى جنبتي الصراط سُورَان, وفي السورين أبواب مفتحة, وعلى الأبواب ستور مرخاة, وداع يدعو من فوق الصراط, وداع يدعو على رأس الصراط ", قال: " فالصراط المستقيم هو الإسلام, والسوران حدود الله, والأبواب المفتحة محارم الله, والداعي على رأس الصراط كتاب الله, والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن ".

فهذان القولان متفقان؛ لأن دين الإسلام هو إتباع القرآن, ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر, كما أن لفظ " صراط " يشعر

بوصف ثالث, وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة. وقول من قال: هو طريق العبودية. وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم, وأمثال ذلك.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة, لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل, وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه, مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى "لفظ الخبز" فأرى رغيفًا, وقيل له: هذا, فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده.

مثال ذلك ما نقل في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: ٣٢].

فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات, والمنتهك للمحرمات, والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات, والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات, فالمقتصدون هم أصحاب اليمين {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ١٠ - ١١].

ثم إن كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات, كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت, والمقتصد الذي يصلي في أثنائه, والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة, فإنه ذكر المحسن بالصدقة, والظالم بأكل الربا, والعادل بالبيع. والناس في الأموال أما محسن, وأما عادل, وإما ظالم, فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات. والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة. والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة, ولا يأكل الربا, وأمثال هذه الأقاويل.

فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية إنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره, فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق.

والعقل السليم يتفطن للنوع, كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف, فقيل له: هذا هو الخبز.

وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا, لاسيما إن كان المذكور شخصا؛ كأسباب النزول المذكورة في التفسير, كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة اوس بن الصامت, وإن آية اللعان نزلت في عويمر

العَجْلاني أو هلال بن أمية, وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله, وإن قوله: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ} [المائدة: ٤٩] نزلت في بني قُرَيْظَة والنَّضِير, وأن قوله: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه} [الأنفال: ١٦] نزلت في بَدْر, وأن قوله: {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} [المائدة: ١٠٦] نزلت في قضية تَمِيم الداري وَعديّ بن بَدَّاء, وقول أبي أيوب إن قوله: {وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥] : نزلت فينا معشر الأنصار, الحديث.

ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة, أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى, أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم, فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق.

والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين, وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه, ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التي لها سبب معين, إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته, وإن كانت خبرًا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضًا.

ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء: أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف, رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها.

وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا, يراد به تارة أنه سبب النزول, ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب, كما تقول: عني بهذه الآية كذا.

وقد تنازع العلماء في قول الصاحب [أى الصحابى] : نزلت هذه الآية في كذا, هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله, أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟

فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند. وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره, بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبة, فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند.

وإذا عُرف هذا, فقول أحدهم: نزلت في كذا, لا ينافي قول الآخر: نزلت في كذا, إذا كان اللفظ يتناولهما, كما ذكرناه في التفسير بالمثال, وإذا ذكر أحدهم لها سببا نزلت لأجله وذكر الآخر سببا, فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب, أو تكون نزلت مرتين, مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب.

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير, تارة لتنوع الأسماء والصفات, وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه, كالتمثيلات هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف.

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملا للأمرين؛ إما لكونه مشتركًا في اللفظ كلفظ {قَسْوَرَةٍ} الذي يراد به الرامي, ويراد به الأسد, ولفظ {عَسْعَسَ} الذي يراد به إقبال الليل وإدباره.

وإما لكونه متواطئا في الأصل, لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين, كالضمائر في قوله: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٨ – ٩].

وكلفظ الْفَجْرِ, وليال عشر, والشفع, والوتر, وما أشبه ذلك. فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف, ووقد لا يجوز ذلك.

فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة, وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه؛ إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء المالكية, والشافعية, والحنبلية وكثير من أهل الكلام, وإما لكون اللفظ متواطئا فيكون عاما, إذا لم يكن لتخصيصه موجب, فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني.

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافا أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة؛ فإن الترادف في اللغة قليل, وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم, وقَلَّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه, بل يكون فيه تقريب لمعناه, وهذا من أسباب إعجاز القرآن.

فإذا قال القائل: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا} [الطور: ٩] : إن المور هو الحركة كان تقريبا؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة. وكذلك إذا قال: الوحي: الإعلام, أو قيل: {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [النساء: ١٦٣] : أنزلنا إليك, أو قيل: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الإسراء: ٤] أي: أعلمنا, وأمثال ذلك, فهذا كله تقريب لا تحقيق؛ فإن الوحي هو إعلام سريع خفي, والقضاء إليهم أخص من الإعلام؛ فإن فيه إنزالا إليهم وإيحاء إليهم. والعرب تُضَمِّنُ الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته.

ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض, كما يقولون في قوله: {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ} [ص: ٢٤] أي: مع نعاجه و {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ} [الصف: ١٤] أي: مع الله ونحو ذلك. والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين, فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه.

وكذلك قوله: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الإسراء: ٧٣] ضمن معنى يزيغونك ويصدونك, وكذلك قوله: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنبياء: ٧٧], ضمن معنى نجيناه وخلصناه, وكذلك قوله: {يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان: ٦] ضمن يروى بها, ونظائره كثيرة.

ومن قال: {لاريب} : لا شك, فهذا تقريب, وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة, كما قال: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ", وفي الحديث أنه مر بظبي حاقف [أي: نائم قد انحنى في نومه] فقال: " لا يريبه أحد ", فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة فالريب ضده ضمن الاضطراب والحركة. ولفظ [الشك] وإن قيل: إنه يستلزم هذا المعنى, لكن لفظه لا يدل عليه.

وكذلك إذا قيل: {ذَلِكَ الْكِتَابُ} : هذا القرآن, فهذا تقريب؛ لأن المشار أليه وإن كان واحدا, فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة, ولفظ [الكتاب] يتضمن من كونه مكتوبا مضمونا ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءا مظهرا باديا. فهذه الفروق موجودة في القرآن.

فإذا قال أحدهم: {أَن تُبْسَلَ} : أي تحبس, وقال الآخر: ترتهن, ونحو ذلك, لم يكن من اختلاف التضاد, وإن كان المحبوس قد يكون مرتهنا وقد لا يكون, إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم.

وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جدا, فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين.

ومع هذا فلابد من اختلاف محقق بينهم, كما يوجد مثل ذلك في الأحكام.

ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم بل متواتر عند العامة أو الخاصة, كما في عدد الصلوات ومقادير ركوعها ومواقيتها, وفرائض الزكاة ونصبها, وتعيين شهر رمضان, والطواف والوقوف, ورمي الجمار, والمواقيت وغير ذلك.

ثم اختلاف الصحابة في الجد والإخوة وفي المشركة ونحو ذلك, لا يوجب ريبًا في جمهور مسائل الفرائض, بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء, والكلالة من الأخوة والأخوات, ومن نسائهم كالأزواج؛ فإن الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة, ذكر في الأولى الأصول والفروع, وذكر في الثانية الحاشية التي ترث بالفرض كالزوجين وولد الأم, وفي الثالثة الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الأخوة لأبوين أو لأب, واجتماع الجد والأخوة نادر؛ ولهذا لم يقع في الإسلام إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل أو لذهول عنه, وقد يكون لعدم سماعه, وقد يكون للغلط في فهم النص, وقد يكون لاعتقاد معارض راجح, فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله.

فصل [في نوعي الاختلاف في التفسير: المستند إلى النقل وإلى طريق الاستدلال]

الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط, ومنه ما يعلم بغير ذلك؛ إذ العلم إما نقل مصدق وإما استدلال محقق, والمنقول إما عن المعصوم وإما عن غير المعصوم, والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم, وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف, ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه.

وهذا القسم الثاني من المنقول؛ وهو ما لاطريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه, فالكلام فيه من فضول الكلام. وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته, فإن الله نصب على الحق فيه دليلا, فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف, وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة.

وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها.

وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر, ونحو ذلك. فهذه الأمور طريق العلم بها النقل, فما كان من هذا منقولاً نقلا صحيحا عن النبي صلى الله عليه وسلم كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم, وما لم يكن كذلك

بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة.

ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم, فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه, وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه ".

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين, وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب, فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض, وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى؛ ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين.

ومع جزم الصاحب فيما يقوله, فكيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم, والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه, ولا تفيد حكاية الأقوال فيه, هو كالمعرفة لما يروي من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك.

وأما القسم الأول, الذي يمكن معرفة الصحيح منه, فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد, فكثيرا ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه والنقل الصحيح يدفع ذلك, بل هذا موجود فيما مستنده النقل, وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل.

فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره, ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير, والملاحم, والمغازي. ويروي: ليس لها أصل, أي إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل, مثل ما يذكره عروة بن الزبير, والشعبي, والزهري, وموسى بن عقبة, وابن إسحاق, ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي, والوليد بن مسلم, والواقدي, ونحوهم في المغازي.

فإن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة, ثم أهل الشام, ثم أهل العراق.

فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم, وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد, فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم؛ ولهذا عظم الناس

كتاب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك, وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار.

وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس, كمجاهد وعطاء ابن أبي رباح, وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب أبن عباس, كطاوس, وأبي الشعثاء, وسعيد بن جبير وأمثالهم, وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود.

ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم, وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير, وأخذه عنه أيضا ابنه عبد الرحمن, وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب.

والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصدًا أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعا, فان النقل إما أن يكون صدقا مطابقا للخبر, وإما أن يكون كذبا تعمد صاحبه الكذب, أو أخطأ فيه, فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقا بلا ريب.

فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات, وقد علم أن المخبرين لم يتواطئا على اختلاقه, وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقًا بلا قصد علم أنه صحيح, مثل شخص يحدث عن واقعة جرت, ويذكر تفاصيل ما

فيها من الأقوال والأفعال, ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطئ الأول, فيذكر مثل ما ذكره الأول من تفاصيل الأقوال والأفعال, فيعلم قطعا أن تلك الواقعة حق في الجملة؛ فإنه لو كان كل منهما كذبها عمدا أو خطأ, لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التي تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه, فإن الرجل قد يتفق أن ينظم بيتا وينظم الآخر مثله, أو يكذب كذبة ويكذب الآخر مثلها, أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية ورَوِيٍّ فلم تجر العادة بأن غيره ينشئ مثلها لفظا ومعني مع الطول المفرط, بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه.

وكذلك إذا حدث حديثا طويلا فيه فنون, وحدث آخر بمثله, فإنه إما أن يكون واطأه عليه أو أخذه منه, أو يكون الحديث صدقا, وبهذه الطريق يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات, وإن لم يكن أحدها كافيا إما لإرساله وإما لضعف ناقله.

لكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التي لا تعلم بهذه الطريق فلا يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ والدقائق.

ولهذا ثبتت بالتواتر غزوة بَدْر وأنها قبل أُحُد, بل يعلم قطعا أن حمزة وعليًا وعبيدة برزوا إلى عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ والوليد, وأن عليا قتل الوليد, وأن حمزة قتل قرنه, ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أم شيبة؟

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف؛ فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازي, وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم وغير ذلك؛ ولهذا إذا روى الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجهين, مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر, جزم بأنه حق, لا سيما إذا علم أن نَقَلَتَه ليسوا ممن يتعمد الكذب, وإنما يخاف على أحدهم النسيان والغلط؛ فإن من عرف الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب, وابن عمر, وجابر, وأبي سعيد, وأبي هريرة وغيرهم علم يقينا أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم, فضلا عمن هو فوقهم, كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبره باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس, ويقطع الطريق, ويشهد بالزور ونحو ذلك.

وكذلك التابعون بالمدينة ومكة, والشام والبصرة, فإن من عرف مثل أبي صالح السمان, والأعرج, وسليمان بن يسار, وزيد بن أسلم وأمثالهم, علم قطعا أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب في الحديث فضلا عمن هو فوقهم,

مثل محمد بن سيرين, والقاسم بن محمد, أو سعيد بن المسيب, أو عبيدة السلماني, أو عَلْقَمة, أو الأسود أو نحوهم.

وإنما يخاف على الواحد من الغلط؛ فإن الغلط والنسيان كثيرا ما يعرض للإنسان, ومن الحفاظ من قد عرف الناس بعده عن ذلك جدا, كما عرفوا حال الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم, لا سيما الزهري في زمانه, والثوري في زمانه.

فإنه قد يقول القائل: أن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط, مع كثرة حديثه وسعة حفظه.

والمقصود أن الحديث الطويل إذا روي مثلا من وجهين مختلفين, من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطا, كما امتنع أن يكون كذبا؛ فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة, وإنما يكون في بعضها, فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة امتنع الغلط في جميعها, كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة. ولهذا إنما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة, مثل حديث اشتراء النبي صلى الله عليه وسلم البعير من جابر؛ فإن من تأمل طرقه علم قطعا أن الحديث صحيح, وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن.

وقد بيّن ذلك البخاري في صحيحه, فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله؛ لأن غالبه من هذا النحو؛ ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق, والأمة لا تجتمع على خطأ, فلو كان الحديث كذبا في نفس الأمر, والأمة مصدقة له قابلة له, لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب, وهذا إجماع على الخطأ وذلك ممتنع.

وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ أو الكذب على الخبر, فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطن, بخلاف ما اعتقدناه, فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطنا وظاهرا.

ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن " خبر الواحد " إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقا له أو عملا به أنه يوجب العلم, وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه, من أصحاب أبي حنيفة, ومالك, والشافعي, وأحمد, إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك, ولكن كثيرا من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء, وأهل الحديث والسلف على ذلك, وهو قول أكثر الأشعرية, كأبي إسحاق

وابن فُورَك, وأما ابن الباقلاني فهو الذي أنكر ذلك, وتبعه مثل أبي المعالي وأبي حامد وابن عقيل وابن الجوزي وابن الخطيب والآمدي ونحو هؤلاء.

والأول هو الذي ذكره الشيخ أبو حامد وأبو الطيب وأبو إسحاق وأمثاله من أئمة الشافعية, وهو الذي ذكره القاضي عبد الوهاب وأمثاله من المالكية, وهو الذي ذكره أبو يعلي وأبو الخطاب, وأبو الحسن ابن الزاغوني, وأمثالهم من الحنبلية, وهو الذي ذكره شمس الدين السرخسي وأمثاله من الحنفية.

وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجبا للقطع به, فالاعتبار في ذلك بإجماع أهل العلم بالحديث, كما أن الاعتبار في الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة.

والمقصود هنا أن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة, يوجب العلم بمضمون المنقول, لكن هذا ينتفع به كثيرا في علم أحوال الناقلين.

وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيئ الحفظ, وبالحديث المرسل ونحو ذلك؛ ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث, ويقولون: إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره. قال أحمد: قد أكتب حديث الرجل لأعتبره, ومثل هذا بعبد الله بن لَهِيعة قاضي مصر؛ فإنه كان من أكثر

الناس حديثا ومن خيار الناس, لكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط, فصار يعتبر بذلك ويستشهد به.

وكثيرًا ما يقترن هو والليث بن سعد والليث حجة ثَبْت إمام.

وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ, فإنهم أيضا يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم أنه غلط فيها بأمور يستدلون بها, ويسمون هذا " علم علل الحديث " وهو من أشرف علومهم, بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه, وغلطة فيه عرف؛ إما بسبب ظاهر, كما عرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال. وأنه صلى في البيت ركعتين. وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها حرامًا؛ ولكونه لم يصل مما وقع فيه الغلط, وكذلك أنه اعتمر أربع عمر. وعلموا أن قول ابن عمر: إنه اعتمر في رجب, مما وقع فيه الغلط.

وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجة الوداع, وأن قول عثمان لعلي: كنا يومئذ خائفين, مما وقع فيه الغلط.

وأن ما وقع في بعض طرق البخاري " إن النار لا تمتلئ حتى ينشئ الله لها خلقا آخر " مما وقع فيه الغلط وليس فيه خوف.

والناس في هذا الباب طرفان: طرف من أهل الكلام ونحوهم, ممن هو بعيد عن معرفة الحديث وأهله, لا يميز بين الصحيح والضعيف, فيشك في صحة أحاديث, أو في القطع بها, مع كونها معلومة مقطوعا بها عند أهل العلم به.

وطرف ممن يدعي اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظا في حديث قد رواه ثقة أو رأي حديثا بإسناد ظاهره الصحة, يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته, حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة, أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم, مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط.

وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق وقد يقطع بذلك, فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك, مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل, مثل حديث يوم عاشوراء وأمثاله مما فيه أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبيًا. وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة, مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة, فإنه موضوع باتفاق أهل العلم.

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين, وكان حاطب ليل, ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية, لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف.

والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي, لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة. والموضوعات في كتب التفسير كثيرة.

مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة, وحديث على الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة, فإنه موضوع باتفاق أهل العلم.

ومثل ما روي في قوله: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: ٧] أنه علي {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١٢] أذنك يا علي.

فصل [النوع الثاني: في الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال]

وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف, وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل, فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان؛ فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين, مثل تفسير عبد الرزاق, ووَكِيع, وعبد بن حُمَيد, وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم. ومثل تفسير الإمام أحمد, وإسحاق بن راهويه, وبَقِيّ بن مُخَلَّد, وأبي بكر ابن المنذر, وسفيان بن عيينة, وسُنَيْد, وابن جرير, وابن أبي حاتم, وأبي سعيد الأشج, وأبي عبد الله بن ماجه, وابن مردويه.

إحداهما: قوم اعتقدوا معاني, ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب, من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن, والمنزل عليه والمخاطب به.

فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان. والآخرون راعوا مجرد اللفظ, وما يجوز عندهم أن يريد به العربي, من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام. ثم

هؤلاء كثيرًا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة, كما يغلط في ذلك الذين قبلهم, كما أن الأولين كثيرا ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن, كما يغلط في ذلك الآخرون, وإن كان نظر الأولين إلى المعنى اسبق, ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به, وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به, وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلا, فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول, وقد يكون حقًا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول. وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن, فإنه وقع أيضا في تفسير الحديث.

فالذين أخطؤوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة, كسلف الأمة وأئمتها.

وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم. تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها, وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه.

ومن هؤلاء فرق الخوارج, والروافض, والجهمية والمعتزلة, والقدرية, والمرجئة, وغيرهم. وهذا كالمعتزلة مثلا فإنهم من أعظم الناس كلاما وجدالا.

وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبم؛ مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي, ومثل كتاب أبي علي الجبائي, والتفسير الكبير للقاضي عبد الجابر بن أحمد الهمداني, ولعلي بن عيسى الرماني, والكشاف لأبي القاسم الزمخشري, فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة.

وأصول المعتزلة خمسة, يسمونها هم: التوحيد, والعدل, والمنزلة بين المنزلتين, وإنفاذ الوعيد, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك.

قالوا: أن الله لا يرى, وأن القرآن مخلوق, وإنه ليس فوق العالم, وإنه لا يقوم به علم ولا قدرة, ولا حياة ولا سمع, ولا بصر ولا كلام, ولا مشيئة ولا صفة من الصفات.

وأما عدلهم فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلها, ولا هو قادر عليها كلها, بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله لا

خيرها ولا شرها, ولم يرد إلا ما أمر به شرعا, وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة, كالمفيد, وأبي جعفر الطوسي وأمثالهما.

ولأبي جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة, لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الاثني عشرية؛ فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج: إنفاذ الوعيد في الآخرة, وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة, ولا يخرج منهم أحدا من النار. ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من المرجئة والكرامية والكلابية وأتباعهم, فأحسنوا تارة وأساؤوا أخرى, حتى صاروا في طرفي نقيض كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه, وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان, ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم.

وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة, وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم, وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن, إما دليلا على قولهم أو جوابا على المعارض لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحا, ويدس البدع في كلامه, وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه, حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله. وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك.

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية, ثم الفلاسفة, ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك, وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة, فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه, فتفسير الرافضة كقولهم: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١] هما أبو بكر وعمر.

و{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥] , أي بين أبي بكر وعلى في الخلافة.

و{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧] هي عائشة حسب زعمهم.

و{فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة: ١٢] طلحة والزبير.

و{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} [الرحمن: ١٩] علي وفاطمة, و{اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢] الحسن والحسين.

و{وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: ١٢] فى علي بن أبي طالب.

و{عَمَّ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ١, ٢] علي بن أبي طالب.

و{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُون} [المائدة: ٥٥] هو علي. ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم, وهو تصدقه بخاتمه في الصلاة.

وكذلك قوله: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٥٧] نزلت في علي لما أصيب بحمزة.

ومما يقارب هذا من بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ}

[آل عمران: ١٧] أن الصابرين رسول الله, والصادقين أبو بكر, والقانتين عمر, والمنفقين عثمان, والمستغفرين علي.

وفي مثل قوله: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} أبو بكر {أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ} عمر {رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} عثمان {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح: ٢٩] علي.

وأعجب من ذلك قول بعضهم {وَالتِّينِ} أبو بكر {وَالزَّيْتُونِ} عمر {وَطُورِ سِينِينَ} عثمان {وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ} [التين: ١-٣] علي.

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال, فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص, وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} كل ذلك نعت للذين معه, وهي التي يسميها النحاة خبرًا بعد خبر. و " المقصود هنا " أنها كلها صفات لموصوف واحد وهم الذين معه, ولا يجوز أن يكون كل منها مرادًا به شخص واحد.

وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصرا في شخص واحد كقوله: إن قوله: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ} أريد بها علي وحده,

وقول بعضهم: إن قوله: {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمر: ٣٣] أريد بها أبو بكر وحده.

وقوله: {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠] أريد بها أبو بكر وحده ونحو ذلك.

وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري, ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل, فإنه كثيرا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري, وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا, ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال, ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين, وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم, وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة, لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه, ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب.

فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول, وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه, وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا.

وفي الجملة من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك, بل مبتدعا, وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه.

فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته, وطرق الصواب.

ونحن نعلم أن القرآن قرأة الصحابة والتابعون وتابعوهم, وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه, كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم, فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا.

ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية, كما هو مبسوط في موضعه.

والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير, وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه, وفسروا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير ما أريد به, وتأولوه على غير تأويله.

فمِن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق, وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم, وأن يعرف أن تفسيرهم

محدث مبتدع, ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق.

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين, من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره.

وأما الذين يخطؤون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم, يفسرون القرآن بمعان صحيحة, لكن القرآن لا يدل عليها, مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير, وإن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة, فإن ذلك يدخل في القسم الأول, وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعا, حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسدًا.

فصل [في تفسير القرآن بالقرآن, وتفسيره بالسنة, وأقوال الصحابة]

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن, فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر, وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر, فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة, فإنها شارحة للقرآن وموضحة له, بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن, قال الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: ١٠٥] , وقال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤] , وقال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: ٦٤] , ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه " يعني السنة. والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن, لا أنها تتلى كما يتلى, وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه, فإن لم تجده فمن السنة, كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: " بم تحكم؟ " قال: بكتاب الله. قال: " فإن لم تجد؟ " قال: بسنة رسول الله. قال: " فإن لم تجد؟ " قال: أجتهد رأيي. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال: " الحمد لله الذي وفق رسولَ رَسُولِ الله لما يرضى رسولَ الله ", وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد.

وحينئذ, إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة, فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن, والأحوال التي اختصوا بها, ولما لهم من الفهم التام, والعلم الصحيح, والعمل الصالح, لا سيما علماؤهم وكبراؤهم, كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين, والأئمة المهديين؛ مثل عبد الله بن مسعود. قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثنا أبو كُرَيْب, قال: أنبأنا جابر بن نوح, أنبأنا الأعمش, عن أبي الضُّحَى, عن مسروق؛ قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت, ولو أعلمُ مكان أحد أعلمَ بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته.

وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل, عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس, ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وترجمان القرآن, ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال: " اللهم فقهه في الدين, وعلمه التأويل ".

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار, أنبانا وَكِيع, أنبأنا سفيان, عن الأعمش, عن مسلم, عن مسروق؛ قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. ثم رواه عن يحيى بن داود, عن إسحاق الأزرق, عن سفيان, عن الأعمش, عن مسلم بن صَبِيح أبي الضحى, عن مسروق, عن ابن مسعود؛ أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس. ثم رواه عن بُنْدَار, عن جعفر بن عون, عن الأعمش به كذلك.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح, وعَمَّرَ بعده ابن عباس ستًا وثلاثين سنة, فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟

وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم, فخطب الناس, فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية: سورة النور ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لَأسلموا.

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين؛ ابن مسعود وابن عباس, ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم, حيث قال: " بَلِّغوا عني ولو آية, وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج, ومن كَذَب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو.

ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب, فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك, ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد, فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل, فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته؛ لما تقدم. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا. ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك, كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف, ولون كلبهم, وعدتهم, وعصا موسى من أي الشجر كانت, وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم, وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة, ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى, إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن, مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز.

كما قال تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٢٢] فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام, وتعليم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال, ضعف القولين الأولين, وسكت عن الثالث, فدل على صحته؛ إذ لو كان

باطلا لرده كما ردهما, ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته, فيقال في مثل هذا: {قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم} فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا} أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته, ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجْم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف؛ أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام, وأن ينبه على الصحيح منها, ويبطل الباطل, وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته, فيشتغل به عن الأهم.

فأما من حكى خلافا في مسالة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه أو يحكي الخلاف ويطلقه, ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضا. فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب, أو جاهلا فقد أخطأ.

كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعددة لفظًا, ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان, وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور. والله الموفق للصواب.

فصل [في تفسير القرآن بأقوال التابعين]

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة, ولا وجدته عن الصحابة, فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين, كمجاهد بن جبر؛ فإنه كان آية في التفسير, كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح, عن مجاهد قال: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته, أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها.

وبه إلى الترمذي, قال: حدثنا الحسين بن مهدي البصري, حدثنا عبد الرزاق, عن معمر, عن قتادة, قال: مافي القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا. وبه إليه قال: حدثنا ابن أبي عمر, حدثنا سفيان بن عيينة, عن الأعمش؛ قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحْتَجْ أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا طَلْق بن غنام, عن عثمان المكي, عن ابن أبي مُلَيْكة؛ قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه, قال: فيقول له ابن عباس: اكتب, حتى سأله عن التفسير كله.

ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جُبَيْر, وعِكْرِمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح, والحسن البصري, ومسروق بن الأجدع, وسعيد بن المسَيَّب, وأبى العالية, والربيع بن أنس, وقتادة, والضحاك بن مُزاحم, وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم, فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ, يحسبها من لا علم عنده اختلافا, فيحكيها أقوالا وليس كذلك. فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره, ومنهم من ينص على الشيء بعينه, والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن, فليتفطن اللبيب لذلك, والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة, فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم, وهذا صحيح, أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة؛ فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم, ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن, أو السنة, أو عموم لغة العرب, أو أقوال الصحابة في ذلك.

فصل [تفسير القرآن بالرأي]

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام. حدثنا مُؤَمَّل, حدثنا سفيان, حدثنا عبد الأعلى, عن سعيد بن جبير, عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قال في القرآن بغير علم, فليتبوأ مقعده من النار ".

حدثنا وَكِيع, حدثنا سفيان, عن عبد الأعلى الثعلبي, عن سعيد بن جبير, عن ابن عباس, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قال في القرآن بغير علم, فليتبوأ مقعده من النار".

وبه إلى الترمذي قال: حدثنا عبد بن حميد, حدثني حبان بن هلال, قال: حدثنا سهيل أخو حزم القطعي قال: حدثنا أبو عمران الجَوْنِي, عن جُنْدُب, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ".

قال الترمذي: هذا حديث غريب, وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل ابن أبي حزم.

وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم, أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم.

وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم: أنهم فسروا القرآن, فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم. وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا, أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم. فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به, وسلك غير ما أمر به. فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه, كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار, وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر, لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ, والله أعلم.

وهكذا سمى الله تعالى القَذَفَة كاذبين, فقال: {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النور: ١٣] فالقاذف كاذب, ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به, وتكلف ما لا علم له به, والله أعلم.

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به, كما روى شعبة, عن سليمان, عن عبد الله بن مُرَّة, عن أبي مَعْمَر, قال: قال أبو بكر الصديق: أي أرض تُقلّني, وأي سماء تظلني, إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم؟! . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام: حدثنا محمود بن يزيد, عن العَوَّام بن حوشب, عن إبراهيم التيمي؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: {وَفَاكِهَةً

وَأَبًّا} [عبس: ٣١] فقال: أي سماء تظلني, وأي أرض تقلني, إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم, إسناده منقطع.

وقال أبو عبيد أيضا: حدثنا يزيد, عن حميد, عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر!

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب, قال: حدثنا حماد بن زيد, عن ثابت, عن أنس؛ قال: كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف, فما عليك أن لا تدريه.

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب, وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر لا يجهل؛ لقوله تعالى: {فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا} [عبس: ٢٧ - ٣٠].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم, قال: حدثنا ابن عُلَيَّة, عن أيوب, عن ابن أبي مُلَيْكَة؛ أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها, فأبى أن يقول فيها. إسناده صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم, عن أيوب, عن ابن أبي مُلَيْكة؛ قال: سأل رجل ابن عباس عن: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس فما: {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤] فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني, فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه, الله أعلم بهما, فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب يعني ابن إبراهيم حدثنا ابن علية, عن مهدي بن ميمون, عن الوليد بن مسلم, قال: جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب بن عبد الله, فسأله عن آية من القرآن, فقال: أحَرّج عليك إن كنت مُسْلِمًا لما قمتَ عني, أو قال: أن تجالسني.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد, عن سعيد بن المسيَّب؛ أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: "إنا لا نقول في القرآن شيئا".

وقال الليث عن يحيى بن سعيد, عن سعيد بن المسيب, أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن, فقال: لا تسألني عن القرآن, وسل من يزعم أنه لا يخفي عليه منه شيء يعني عكرمة.

وقال ابن شوْذَب: حدثني يزيد بن أبي يزيد قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام, وكان أعلم الناس, فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عَبْدَة الضَّبِّيّ, حدثنا حماد بن زيد, حدثنا عبيد الله بن عمر؛ قال: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير, منهم سالم بن عبد الله, والقاسم بن محمد, وسعيد بن المسيب, ونافع.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عُرْوَة قال: ما سمعت أبي تأوَّل آية من كتاب الله قط.

وقال أيوب وابن عَوْن وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن, فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن, فاتق الله وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ, عن ابن عون, عن عبيد الله بن مسلم بن يسار, عن أبيه؛ قال: إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده.

حدثنا هُشَيْم, عن مغيرة, عن إبراهيم؛ قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه.

وقال شعبة عن عبد الله ابن أبي السَّفْر؛ قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها, ولكنها الرواية عن الله.

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم أنبأنا عمر بن أبي زائدة, عن الشعبي, عن مسروق؛ قال: اتقوا التفسير, فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف, محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير, ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه, وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به, فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا

تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧] , ولما جاء في الحديث المروي من طرق: " من سئل عن علم فكَتَمَه أَُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار".

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشّار, حدثنَا مُؤَمَّل, حدثنا سفيان عن أبى الزِّنَاد, قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها. وتفسير لا يعذر أحد بجهالته. وتفسير يعلمه العلماء. وتفسير لا يعلمه إلا الله, والله سبحانه وتعالى أعلم.

فهرس

مقدمة 1

فصل [في أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معاني القرآن] 4

فصل [في اختلاف السلف في التفسير وأنه اختلاف تنوّع] 6

فصل [في نوعي الاختلاف في التفسير: المستند إلى النقل وإلى طريق الاستدلال]
19 ....

فصل [النوع الثاني: في الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال] 31

فصل [في تفسير القرآن بالقرآن, وتفسيره بالسنة, وأقوال الصحابة] 41

فصل [في تفسير القرآن بأقوال التابعين]................................ 47

فصل [تفسير القرآن بالرأي] 49